مذكرات فاطمة رشدي

سارة برنار الشرق



اعداد
محمد رفعت
المحامي

مذكرات

فاطمة رشدي

مذكرات فاطمة رشدي

سارة برنار الشرق

ومملثة المسرح العربي الاولى

إعداد

محمد رفعت

المحامي

دار الثقافة

بيروت - لبنان

مُقَدِّمة

ان الجلسات التي جلستها مع فاطمة رشدي لتملي عليّ فيها مذكرات حياتها الفنية فترات تعد في مذكرات حياتي الصحفية . ومن أجل جلسة واحدة منها كان يدفع عزيز عيد فنه كله ، ويهب احمد شوقي شعره كله ، وينفق ايلي الدرعي ملايينه كلها .

وأنت اذ تجلس الى فاطمة رشدي ، تجلس الى الموهبة العبقرية والعزيمة والذكاء ، مغلفة كلها بفتنة وسحر المرأة . والزمن لم يقو على ان يمحو شيئاً من هذا كله . وانما ألقى عليه ظلالاً شفافة ، ما زالت أضواء الماضي تسطع من ورائها .

وفاطمة لم تمل عليّ مذكراتها هذه املاء ، وانما مثلتها امامي فقرة فقرة كما عاشتها .. وشدّتني اليها كما كانت تشد جمهور مسرحها الى تمثيلياتها الخالدة . وأرجو أن يوفق قلمي الى التصوير الحي لهذه المذكرات كما عشتها مع صاحبتها .

والآن ايها القارىء العزيز ..

صمتاً . ولتفتح أذنيك وترهف حواسك ..

اني ارفع لك الستار عن مذكرات فاطمة رشدي :

محمد رفعت



الفصل الاول

آخر العنقود

ورثت مواهبي الفنية من جدتي لأمي المرحومة حفيظة هانم احدى وصيفات زوجة الخديوي اسماعيل المفضلة وان يكن لم ينجب منها بنتاً ولا ولداً فقد كانت عقيمة وهـذا سر احتفاظها بجمالها الذي أسر هذا الخديوي – زير النساء ودون جوان مصر في عصره . ومن اجل ارضاء نزعتها التحررية الفكرية انشأ اول مدرسة لتعليم البنات في شارع السيوفية في القـاهرة الذي يقع في بدايته سبيل أم عباس الاول ، ثم نقلت فيما بعـد – وفي عهد الاحتلال البريطاني الى شارع المبتديان وسميت المدرسة السنية ويعتبر انشاء هذه المدرسة بداية النهضة اللسوية في مصر . فمنها خرجت باحثة البادية ملك حفني ناصف .

نعم وكان ظهور المجتمع المصري حتى ظهور كتاب تحرير المرأة لقاسم امين يؤمن بان المرأة مجرد أداة للنسل والخدمة في البيت ولا يصلح ولا ينبغي ان تباشر عملاً غير ذلك .

وفي قصور اسماعيل التي هي من آيات فن العمارة وفي حدائقها التي زخرفت وبولغ في تنسيقها وبين الاثاث الفاخر ومظاهر البذخ الارستقراطي الحافل بالتحف في هذا الجو المتألق بالغيد الحسان يرفلن في فساتين الحرير والمخمل قضت جدتي لأمي شطراً من شبابها تمارس وظيفة « الوصيفة » لزوجة خديوي مصر ، فاذا نفسها الحساسة الواعية تتشبع بالفن وتمتص رحيقه في طريق اللاوعي ثم كانت تشهد مع زوجة الخديوي ، الروايات الغربية التي كانت تمثل على مسرح الاوبرا لان زوجة الخديوي كانت سيدة مثقفة تجيد الفرنسية والتركية واليونانية وعندها معرفة بالعربية .

وعن والدي ورثت الرغبة في الاعتماد على النفس واتخاذ العصامية مبدأ ودخول الميدان الفسيح ، ميدان النجاح والفشل ، ميدان الكفاح والنضال ، ميدان المسئولية الفردية والمسئولية الجماعية نحو المجتمع ، الميدان الذي كان المصريون يتركونه وقتئذ للاجانب ، ميدان الاعمال الحرة .

وكان والدي جندياً في الجيش التركي رقي في الحرب التي شنتها تركيا على اليونان في القرن العشرين الى رتبة ملازم ثان لشجاعته وحسن فدائه ورأى بعين رأسه الغازي أدهم باشا يدخل سراي

ملك اليونان ممتطياً جواده الامر الذى أثار ثائرة الدول الاوربية.
وبعد ان اكرهت تركيا على الجلاء عن اليونان وجد والدي نفسه مهدداً بالقائه حياً – او مقطوع الرأس في البسفور لانه كان أحد أعضاء حزب «تركيا الفتاة» فهرب من جواسيس السلطان عبد الحميد حين عرف أمره وانكشف انتماؤه الى هذه الجمعية الثورية التي ألفت لغرض واحد وهو عزل عبد الحميد واقامة حكم ديمقراطي واعادة بناء الامبراطورية التركية على أسس عصرية هرب، من سالونيك–مقر هذه الجمعية الى الاسكندرية، وهناك وبرأس مال وبمشاركة تاجر اسكندري أنشأ مصنعا للحلاوة الطحينية والملبس الاسطنبولي وغير ذلك من صنوف الحلوى المحببة لأهل هذا الزمان. وكانت مصر تستورد من تركيا الفاكهة وخاصة عنب أزمير وتفاح اماسيا وخشب الجوز التركي والسيداني الاسلامبولية والمحارم المطرزة بالذهب والفضة والحلاوة الطحينية ذات اللون العسلي والخيوط التي تشبه ضفائر شعر الزنجيات وهي غير الحلاوة الطحينية البيضاء المتماسكة المألوفة لنا. وكانت هذه الحلاوة تأتي في علب او صفائح ويحبها الاغنياء وكان كثرتهم من اصل تركي او قوقازي – كما هو معروف.

اغتبط والدي لنجاح جمعية تركيا الفتاة بزعامة انور ونيازي

كما اغتبطت كل الدول الاسلامية . وليت والدتي عرفت قيمة الخطابات التي بعث بها هذان الزعيمان الى والدي ، وليتها ايضاً احتفظت بالخطابات التي بعث بها اليه مصطفى كمال الذي عاش في مصر فترة ومر بها في طريقه الى طرابلس لقيادة جيش الكفاح ضد ايطاليا .

على ان مصنع والدي مـا لبث ان تضاءل امـام طوفان الشيكولاته والحلوى الاوروبية وعـدم اقبال « الذوات » على الملبس ابو لوز والحلاوة الطحينية « الشعر » كما كانوا يسمونها . لكنه كان مورد رزق لا بأس به استطاع ان ينفق منـه على زوجته واربع بنات هن بترتيب اعمارهن عزيزة ورتيبـة وانصاف وفاطمة « التي هي انا » .. وكنت أسيرة عند والدتي لاني كنت « آخر العنقود » .

ومات والدي وصفيت الشركة وفاز شريكه في مصنع الحلوى – كما هي العادة – بنصيب الاسد ويرجع ذلك الى جهل أمي بالقراءة والكتابة ... واصبحنا على الحديدة .

الفصل الثاني

كومبــارس

ومرت الايام قاسية طاحنة .

واضطررنا الى البحث عن مصدر للقوت .

ورشح صديق للعائلة اختي انصاف لتكون احدى فتيـات الكورس في أحد مسارح الاسكندرية ، وعارضت امي خوفاً على أختي ، ولكن صديق العائلة ما زال بها حتى اقنعها بانهـا تستطيـع ان تلازمها كحارسة أمينة لا تفارقها حتى انتهاء عملها . ووافقت آخر الأمر ، وأشتغلت انصاف في هـذا المسرح ، واصبحت أمي تلازمها من ساعة خروجها من البيت حتى عودتها اليه . وكنت احياناً اذهب معها الى المسرح .

واتفق انْ وفد الشيخ سيد درويش رحمـه الله الى الاسكندرية ، وزار مسرح عطاالله وغيره من المسارح الموجودة في الاسكندرية وقتئذ باحثاً عن فتيات صالحات للعمل ضمن

الكورس الذي يعمل في رواية العشرة الطيبة ، وهي تمثيلية من نوع الاوبريت – او الاوبراكوميك – من تأليف فقيد التأليف المسرحي المرحوم محمد تيمور وتلحين الشيخ سيد درويش واخراج عزيز عيد . وكانت تمثل على مسرح الكازينو دي باري في القاهرة الذي هدم وشيدت مكانه سينما ستوديو مصر عند ملتقى شارعي كوم الدكة وشارع عماد الدين .

ورآني الشيخ سيد درويش في الصالة ثم رآني وراءالكواليس ذاهبة الى غرفة أختي وانا أدندن بما سمعته من أغنياته . فتبعني الى الغرفة ودخل.. وبعد أن سلم على والدتي وعلى انصاف اختي أعرب عن اعجابه بي وصحبني الى بائع الحلوى على باب المسرح واشترى لي شيكولاتة وحلوى لا أبالغ اذا قلت انها كانت تساوي اذ ذاك جنيهين ..

وأقنع الشيخ سيد درويش والدتي بسفرنا الى القاهرة لالحاق انصاف بكورس رواية العشرة الطيبة واظهاري على المسرح بين الفصول ، واذا أمكن عهد الي باداء ادوار الاطفال .

فترددت والدتي ، وفطن الشيخ سيد الى السبب ، فأخرج من جيبه ورقة من ذات العشرة جنيهات ودسها في يدها قائلا :

هذه قصيرة وعندما تأتون الى مصر اسألي عني في مسرح كشكش بعماد الدين .. اسألي والف من يدلك .

فاطمأنت ووعدته بالتنفيــذ – أي سفرنا الى القاهرة نحن الثلاثة . ولكننا لم نسافر الا بعد ان انفضت فرقة امين عطاالله، ولما وصلنا الى القاهرة واتصلنا بالشيخ سيد درويش علمنا ان فرقة العشرة الطيبة حلت،ولكن انصاف الحقت بفرقة الريحاني.

ولسفرنا الى القاهرة واتصالنا بالشيخ سيد قصة طريفة .

أنا مدينة لاثنين من أعلام الموسيقى والمسرح أولهما الموسيقار السيد درويش والثاني المؤلف المسرحي محمد تيمور . فأما الاول فقــد نقلني من الاسكندرية الى القاهرة حيث البيئة المسرحية والحياة الفنية المتأهبة للانطلاق الى آفاق فسيحة وبعيدة ، وأما الثاني فرفعني من مجرد منولوجست ومطربة طقاطيق الى المسرح الذي تدرجت فيه الى ممثلة أدوار.

ولم يكن انتقالنا من الاسكندرية الى القــاهرة ممكناً لولا العشرة جنيهات التي اعطاها الشيخ لوالدتي لتمكيننا من السفر .

وقد رحلنا الى القاهرة ليلاً في جنح الظــلام وكانت تجربة جديدة غريبة بالنسبة لي ، فهذه اول مرة اركب فيها القطار ،

وكان القمر بدراً لم يتكامل وأخذت القي نظرة من نافذة القطار على القرى الغارقة في الظلام ويخيل إلي أنها مليئة بالاشباح أحسها ولا أراها .

وفي محطة القاهرة ركبنا احدى عربات سوارس وهي من وسائل المواصلات الشعبية في ذلك الوقت ، وكانت تجرها ثلاث بغال وكان ثمن التذكرة من ميدان المحطة الى سيدنا الحسين ثلاث مليمات ، وصعدنا الى عربة سوارس نحن ومجموعة من البقج التي تضم ملابسنا وحملتنا المركبة الى ميدان الحسين حيث نزلنا في فندق متواضع ، وكل الفنادق هناك كانت وما زالت متواضعة يؤمها أهل الريف في مولد الحسين وموالد اهل البيت . والحياة فيها تشبه الحياة في « الحريم » الاختلاط بين الجنسين ممنوع والنساء النازلات فيها جواهر مكنونة في الاصداف مصونة .

وفي الغد ذهبنا قبيل الظهر لمقابلة الشيخ سيد في مسرح كازينو دي باري ، فوجدناه مغلقاً وقيل لنا ان الفرقة التي مثلت عليه « العشرة الطيبة » قد حلت ... وارشدنا ابن الحلال الى مسرح كشكش « الريحاني » حيث يمكن ان يوجد الشيخ سيد اثناء البروفات.. فلم نجده. وتلقانا نجيب الريحاني بشيء غير قليل من البشاسة، ودعانا انا واختي انصاف للعمل معه في الكومبارس

بأجر اظنه عشرة جنيهات وبدأنا عملنا الجديد وكم حلقت فوقنا الدبابير وحامت الذئاب وتبخطر الدنجوانات . وكان الدبابير فتية معظمهم من شبان الموظفين وقلتهم من الشباب الوارثين المستهترين ابناء الاغنياء المرفهين حكام زمـــان الذين سلبتهم الثورة العرابية والاحتلال البريطاني الذي تسلط على البلاد ما كانوا يتمتعون به من سلطان وحرية في الظلم والسلب والنهب والفوضى .

اما الذئاب فكانوا طائفة من اعيان الريف والحضر – جعلوا همهم ارضاء غرائزهم الحيوانية . والدونجوانات كل أمرهم معروفاً فهم ابطال يغزون قلوب النساء بالدماء والحيلة والبراعة في تمثيل ادوار العشـــاق وتحطيم حيـــاة الجنس الناعم وصنع الفضائح ، وقد حمتنى أمي من التردي في الوهدة والانزلاق الى ما انزلقت اليه فتيات كثيرات أغرامن الذهب او الحب الزائف، فحملهن التيار الجارف الى اعماق مجهولة ومصائر محزنة مخزية .



الفصل الثالث

في شارع عماد الدين

بعد شهرين - تقريباً - استغنت عنا فرقة كشكش بك فماذا نعمل .. الحق ان مجال العمل لفتيات الكومبارس كان متوفراً اذا كن على شيء من الجمال وحسن الصوت والاستعداد الفني الذي يؤهلهن لان يكن مطربات من الدرجة الثالثة او ممثلات ثانويات يقمن بأدوار تافهة .

زخرت القاهرة بدور اللهو من مسارح استعراضية الى كباريهات وهو ضرورة دعت اليها كوارث الحرب العظمى الاولى . فوجد الاهالي متنفساً لكربهم في التسلية المتاحة لهم في الغناء والرقص والتمثيل الهازل . ومهما قيل في السخرية من هذه المسارح والكباريهات ، فلا سبيل الى انكار انها كانت العامل الاول في تمكين سيد درويش من ابداع موسيقاه ونجاحه في تطوير الغناء ونقله من التخت الى المسرح ومن الطرب ومخاطبة

الغرائز الجنسية الى التعبير عن الحياة العصرية في بعض مظاهرها واحوالها وتطويعها للاوبرا والاوبرا كوميك . ويحمل بي هنا ان اعترف بفضل كامل الحلمي وداود حسني في هذا الصدد . ولا شك ان محمد عبدالوهاب هو خليفة سيد درويش وموسيقاه امتداد لموسيقى استاذه مع اقتباسات موفقة في الموسيقى الغربية.

انفرد شارع عماد الدين خلال الحرب العالمية الاولى وبعدها بقليل بالمسارح الاستعراضية ، وانفرد ساحل روض الفرج بمثل تلك المسارح مع تنويع يلائم رواده ، ففي روض الفرج كان للطقطوقة شأن كبير ومنزلة محبوبة .. كذلك كان الرقص سلعة رائجة وفناً شعبياً يقبل عليه الزبائن . ولم يحتل المنولوج خشبة المسرح كنوع فني شعبي الا في أواخر الحرب وبعدها ، وقد ظهر اول الأمر في نادي الموسيقى « معهد الموسيقى الشرقي فيما بعد » ثم لعب دوراً كبيراً في ثورة ١٩١٩ وأجاده عبدالله شداد تأليفاً وتلحيناً والقاء. واصبح له عشاق في رواد كباريهات عماد الدين بفضل بديعة مصابني وبيبا عزالدين ويوسف عزالدين.

وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ... صدق الله العظيم ، فقد كان طردي أنا وأختي انصاف سبباً في تقدمي خطوة الى الامام في عالم الفن ، فقد الحقني يوسف عزالدين بمسرحه مطربة

أغني الطقاطيق فأجدتها ، ونلت اعجاب الالوف والله يعلم هل كان لجمالي وخفة ظلي نصيب الأسد أم يرجع معظم السبب الى صوتي الذهبي وابداعي في الالقـاء ، أم ان مرد ذلك لمعنى الطقاطيق ومغزاها وتلحينها ؟! لا أدرى ...

وأذكر ان طقطوقة واحدة بزت جميع الطقاطيق أوردها فيما يلي :

جرى ايه للساعة ما بتمشيش
والا الحبيب يا ترى ما بيجيش
يا ترى جرى ايه أخره عني
ده بعـــده والله مجنني
ان غـــاب دقيقـه يوحشني
يا رب صبر قلبي عليه

ويلاحظ القارىء ان خاتمة الطقطوقة تمجد المصريين وتشيد بالانتساب الى مصر وتلك ظاهرة ترجع في أسبابها الى الوعي الوطني الذي ايقظته ثورة ١٩١٩ وظل متأججاً بعدها ... كل الاغاني والمنولوجات كانت دعاية لمصر وتحريضاً على الجدّ في الكفاح ، وفي هذا المضمار ضرب الشيخ سيد درويش مثلاً رائعاً في تلحين ما نظمه الاستاذان بديع خيري وبيرم التونسي .

عن هذا الطريق ساهمت في ثورة ١٩١٩ ولم انعزل عنها ، كما لم ينعزل الفن — فن المسرح وفن الموسيقى .

ولعل أثر هذه الاغاني والمنولوجات كان أعمق وأوسع مدى من مقالات الصحف وخطب الخطباء على بلاغتها وكثرتها . ذلك ان الموسيقى تضاعف من سحر الكلام المنظوم واذا اجتمع جمال التلحين وجمال الصوت وجمال الاداء وجمال المعاني الشعرية فتلك هي الفتنة ، فما بالك اذا اجتمع الى كل اولئك جمال المطربة ؟!

ما أصعب صعود سلم الفن ... ان المواهب وحدها لا تعبّد لك طريق الفن . والخبرة المسرحية واجادة التمثيل والحرص على التقدم ، لن تضمن لك الصعود الى الذروة .

ان كل ممثل وممثلة يبدأ مغموراً ، وقد ينتهي مغموراً، تقبره البيئة الفنية صالحة كانت او فاسدة ، ويحمله التيار الى مصير مجهول .

وأحمد الله انني اتخذت من الفشل قوة دافعة ، ولم أيأس قط من النجاح ، ولم تفتن عزيمتي عن السير الى الامام . وكنت أجد

في النجاح حافزاً ، لم يغرني نصر فني ولم « احمد » نشاطي واقنع بنجاح .

ولست أدعي انني عشت حياة كلها اضواء وافراح ... لقد عشت حياة فنية زاخرة بالسعادة وبالشقاء ، ومع ذلك فقد استمتعت بهذه الحياة ، لان للفن لذة خفية هي ترياق للهموم وعزاء عن الحرمان ومعوان على عوادي الزمان . واحسب القارىء يعلم ان المسرح في مصر تقلبت به الاحوال ، ومات وبعث اكثر من مرة وأقصد هنا المسرح الجاد : مسرح الدراما الرفيعة والتمثيليات العالية الخالدة – ومات وبعث الممثلون والممثلات ، بل لقد مات في حياة المسرح من الممثلين والممثلات أضعاف من نجحوا .

والفشل المبكر قد يقضي علي الفشل الناشىء ، لكنه قد يقوي من عزيمته . ولا دخل في ذلك للمواهب والإستعداد الفطري وانما المعول فيه على الاخلاق وخاصة صفات الكفاح والنضال. وأذكر ان نجيب الريحاني حينما استغنى عني انا وأختي انصاف قال لنا ان في بور سعيد « تياترو » في حاجة الى فتاتين

تطربان الجمهور بأغاني تمثيلياته الاستعراضية ، فما كان من والدي وكانت تصحبنا الى مسرح الريحاني ــ الا ان قررت سفرنا الى البلد الذي كتب له فيما بعد ان يدفع عن مصر كلها ضريبة الجهاد من ارواح شهدائه ودمائهم ودموعهم وعرقهم .

الفصل الرابع

مطربة في البوسفور

سافرنا أنا وأختي انصاف مع أمي الى بور سعيد .

وهناك ظهرنا في التياترو – وهو في الحقيقة « سرك » . بين جمهور من العمال والباعة والمتجولين والبمبوطية وشذاذ الناس وكان مقامنا في الحي العربي .

ولما شرعنا في غناء أغنية الشيخ سيد درويش المشهورة التي مطلعها :

طلعت يا محلى نورهـا
شمـس الشمـومي

صاح الذين خلفنا قائلين بلهجة الاحتجاج : احنا اخدنا ايه من ضهركم ... ادونا وشكم » فاضطررنا الى الدوران لمواجهة المتفرجين الذين ضاق بهم التياترو وضجوا من السرور وهم

حولنا صفوف متراصة حلقة بعد حلقة تحيط بالساحة المستديرة التي كنا ندور في وسطها .

ودرنا ثم درنا .. الى ان أصبنا بدوار أفقدنا الوعي . فارتمينا على الارض ..:.

فهل أسعفونا ؟! هل وضعوا في انوفنا ماء الكولونيا او ماء النشادر ، هل سقونا جرعة من الماء ؟! هل حملونا الى حيث ننعم بالراحة والهدوء ؟

كلا ... لم يفعلوا شيئاً من ذلك .

فالذي حدث فظيع ... حدث ان عبدالحليم المصري الرباع المشهور كان يعمل في هذا التياترو ويسمونه « عنتر بك » تشبيهاً له في قوته وجبروته البدني بالفارس العربي الاشهر .

حدث ان عبدالحليم المصري انقض علينا كالعقاب ، ورفع بيمناه اختي انصاف ورفعني باليسرى ، ثم قذفنا خارج التياترو بين تهليل النظارة وهتافهم اعجاباً ببطولته .

واصطدمنا بالارض ... وايقظتنا الصدمة من الاغماء . . . فوجدنا والدتي تأخذ بيدنا قائلة : « قدر ولطف ... يا ما انت كريم يا رب » .

وعدنا الى القاهرة بتجربة قاسية لن انساها وخاصة لاني عقبها مباشرة ظهرت مرة على المسرح في دور طفلة تلعب الكرة وتغني .

كان ذلك في مسرح الكازينو دي باري الذي اتفقت صاحبته مدام مارسيل مع الممثل الكوميدي الكبير المرحوم محمد بهجت على تمثيل مسرحيات استعراضية من جلس مسرحيات الريحاني والكسار .

كنت منذ قليل مطربة فاشلة لفظني « السرك » فأصبحت ممثلة « قد الدنيا » هكذا تصورت نفسي وافتخرت على اخواتي وزميلاتي ، وركبني زهو ، ليس أعجب منه الا زهوي حين قدمني فقيـد المسرح والادب العربي المغفور له محمد تيمور الذي كان من رواد المسرح ، وكان يعطف عليّ ويشجعني ، قدمني الى عزيز عيد قائلاً بالحرف الواحد: « اقدم لك يا استاذ بنت صغيرة سيكون لها شأن في المستقبل ... انها ذكية ومجنونة بالتمثيل ثم ضحك واضاف قائلاً : ومجنونة بالتأليف ... لقد قالوا لي انها تؤلف كل يوم رواية ... يعني راحت علينا ... » .

وطلب مني أن أقص عليه آخر رواية ألفتها ... فخجلت واعتذرت ... والحق اني في باكورة حياتي الفنية — وما زلت

مقترنة بالسينما افتتاني بالمسرح الا ان المسرح بمعناه الصحيح كان قد اختفى من الحياة الثقافية المصرية ولهذا انصرفت الى السينما.

وكان عندي طموح جارف ، وعندي آمال عراض في اني سأكون « ساره برنار » المصرية ... وتوهمت ايضاً اني مؤلفة سينمائية فصرت اقضي اوقات عزلتي مع نفسي في تأليف السينمائيات وبالطبع كانت اشبه الاشياء بالقصص التي ينسجها خيال الاطفال .

كنت مطربة أغني على نغمات التخت وايقاع آلاته . . . والغناء في مصر – وفي غير مصر يجتذب النظارة طلاب التسلية الى الملاهي ، وكانت المطربة أروج من الممثلة وأوفر حظاً نسبياً وما زال الحال كذلك ، بدليل انه حتى « العوالم » حظهن مثل المطربات ، انظر اليهن ... هل تعطلت منهن واحدة ، هل كسدت سوقهن كما كسدت سوق الممثلات اللاتي خدمن الفن المسرحي فترة من الزمن ، وهل بلغ دخل اي ممثلة مهما عظمت دخل أية عالمة متوسطة الحال ...

وكنت أغني في ملهى البوسفور – بالدور السفلي بينما كانت المطربة ملك تغني في الدور الاعلى وبلغ مرتبي في الشهر عشرة

جنيهات وهو مبلغ يساوي بسعر اليوم من ٤٠ الى ٥٠ جنيهاً . ومن الناحية المادية كنت مطمئنة ، لكن رغباتي الفنية كانت أقوى وأعنف من ان تستنيم الى هذه الطمأنينة او تصرفني عن احلامي الكبيرة في اعتلاء خشبة المسرح وتمثيل روائع المسرحيات العالمية .

لهذا اعتبرت تشجيع محمد تيمور لي وتكهنه بمستقبلي بمثابة حقائق لا بد ان تقع او هكذا صور لي الغرور . وزهوت على اترابي واعتقدت اني ممثلة الغد الكبرى وزعيمة بنات حواء اللاتي احترفن التمثيل .

وأعجب عزيز عيد بي ، وآمن بتكهنات محمد تيمور ولم يدر في خلدي ان حياتي الفنية ستتطور منذ هذه اللحظة وان مستقبلي كممثلة وكزوجة وكأم قد تحدد في تلك المقابلة العابرة.

والمصادفات في رأي بعض المفكرين تلعب دوراً خطيراً في حياة الافراد والامم ، وقد يتوقف عليها سعادة محروم شقي ، وقد تدفع البلاء المحتوم بقضاء لم يكن في الحسبان .



الفصل الخامس

الذئـــاب

للشباب حماقاته ، وله ايضاً تجلياته : فالشباب دينامو يدفع الفتيان والفتيات نحو المصير الذي يجهلونه . وقد تحدد المواهب هذا المصير ، وقد تذوب العقبات ويصل الفتى العبقري او الفتاة ذات الموهبة الخلاقة الى الهدف المنشود . لكن كثرة الشبان يجعلون هدفهم لقمة العيش – أعني الكسب الضروري للحيـاة التي جعلوها هدفهم .

ان الذين تـرقهم مثلهم العليا من انفسهم قلة ممتازة وصفوة أودعت فيهم الطبيعة سر التقدم وحاباهم القـدر فصار رهن مشيئتهم . وهؤلاء يعيشون في بيئاتهم غرباء ، وهم في الواقع أنبياء لهم رسالات انسانية . انهم منارات تضيء الطريق الى الغد الافضل ، انهم رواد التقدم وأئمة تهدي الاجيال في الظلام الكثيف سواء السبل . وأغرب أمرهم ان معاصريهم ينكرونهم

او يحقدون عليهم ويثبطونهم ، حتى اذا ماتوا أقيمت لهم التماثيل وحفلات التأبين والذكرى وألفت فيهم الكتب وآمن بهم وبرسالاتهم من كفر بها .

وقد قضيت شبابي وصدراً من طفولتي مجنونة بفن التمثيل أعيش في احلام اليقظة الاحلام التي تخيلتني فيها معبودة الجماهير الممثلة التي يصفق لها الشعب العربي كله ويمجدها ويفخر بها ويعطيها ما هي أهله ، وتعطيه فنا رائعاً لم تألفه المسارح في بلاد العروبة .

لم أجد طريقي الى أهدافي معبّدا . فأنا فتاة فقيرة يتيمة ، لا أقرأ ولا أكتب ، قد وضعت رجلي على اول السلم ، فكيف اصعد الى القمة ... ما هي مؤهلاتي ، ما هي امكانياتي ، ما هي أدوات النجاح ووسائله . لم أكن أدري الاجابة على هذه الاسئلة ، الذي كنت أدريه ، الذي كنت أحسه واؤمن به هو اني سأكون ممثلة عبقرية ... كنت انظر في نفسي — في اعماق نفسي ، فأرى قبساً وهاجاً من روح الله... كنت على ايمان عامر يرفعني عن الارض ويزهدني في متعها ويقربني الى مثلي الاعلى — الى جبل الاولمب حيث آلهة الفن كما يزعم الاغريق .

واسوأ من الفشل الذي لاحقني ، يوم كنت أطرد من فرق

الروايات الاستعراضية ومن مسارح التمثيل، هو مطاردة الذئاب لي . لا عدد للذئاب التي نهشتني عيونهم وآلمتني عباراتهم البذيئة وأحابيلهم ومناوراتهم الخسيسة . . . خطابات عديدة تصلني تنم كلها عن مرض يسميه الناس الحب ، وما هو الا تعبير عن ميل الجنس للجلس واللاحيوانية تحركها غريزة النفس .

كنت في شغل عن هذه الذئاب وعن سخافاتها ، فسريعاً عرفت ان العناية تلحظني وان عين الله ترعاني وتحميني .

والحكاية التي أرويها تدل على لطف الله بي ووقوفه الى جانبي ساعة المحنة .

أولعت بركوب الخيل تشبهاً بممثلة السينما الصامتة بيرل هوايت التي اتخذتها مثلاً اعلى لي ، لاني كنت اجهل اللغات الاجنبية التي تمكننى من مشاهدة الروايات المسرحية التي كانت تمثل في الاوبرا وعلى مسرح الكورسال لخلال موسم السياحة عاما بعد عام .

وكنت امتطي صهوة جواد استأجره وأسير به في شارع عماد الدين صباحاً لان هذه الفترة من النهار كنت لا تجد في شارع عماد الدين حركة اللهم الا « المترو » وقليل من الباعة المتجولين والمتسكعين من المتعطلين الذين يلوذون بهذا الشارع طلباً

للرزق غير المشروع او الكسب من خدمات تافهة... وفي بعض الاحيان كنت اغشى هذا الشارع بين الظهر والعصر قبل ان يكتظ بطلاب التسلية واللهو البرىء .

ومما كنت اتخيله وقتذاك اني أؤدي المهمة التي اعتاد ان يؤديها النجم السينمائي « توم ميكس » وهي مطاردة رجال العصابات ... وكلما رأيت الناس يهربون من بين يدي كلما تضاعف سروري .

وذات مرة مررت على قهوة تسمى « قهوة الفن » تقع على ملتقى شارع عماد الدين وقنطرة الدكة امام سينما الكوزموغراف الذي كان فيما قبل تياترو عباس الذي مثلت فيه فرقة الشيخ سلامه وجورج ابيض في أوائل الحرب العالمية الاولى عندما تماثل الشيخ رحمه الله للشفاء من الشلل الذي اصابه في رحلته الى الشام قبل هذه الحرب .

أقول حدث اني مررت امام هذه القهوة وكانت انيقة تعزف فيها اذا حل المساء فرقة موسيقية ، وتقدم وجبات الغداء والعشاء للراغبين باثمان مرتفعة ، فكان لا يغشاها سوى الاعيان والوارثين ...

واني لفي طريقي الى سينما الكوزموكعادتي كل مساء وقبل

ان يحل موعد المسرح الاستعراضي الذي كنت اعمل فيه او الملهى الذي اكسب منه قوتي – اذا برجل في زي أهل الريف ومن اعيانهم على ما يبدو ، يناديني باسمي ويدعوني اليه بكلمات رقيقة شعرت في نبراتها حنان الاب وعطف الابرار على الصغار.. وتلقاني هاشاً باشاً واعطاني كمية لا يستهان بها من الشكولاته التي ما زلت احبها ، وراح ينصحني بعدم ركوب الخيل خوفاً عليّ من جوحها وتعرضي لما لا تحمد عقباه ومضى يمتدح ذكائي الذي اكتشفه بعينه اللماحة ويسألني عن كيت وكيت فأجيبه في حياء وتلعثم .

وتكرر نداؤه لي وتكرر ايضاً تقديمه لي الشكولاتة ... ومرة دعاني للعشاء فلبيت دعوته ، وكيف ارفض أكلة شهية في ذلك المطعم الارستقراطي ، ونحن في منزلنا لا نحلم بمثلها .

وازدادت حفاوته بي واهتمامه بشأني فتعطف واشترى لي فساتين وملابس داخلية غالية الثمن ، سألتني والدتي عن مصدرها فقلت لها انه رجل من الاعيان يحنو عليّ ويعاملني كما لو كنت احدى بناته وشهدت بصدق قولي شقيقتي انصاف .

وبالغ في أريحيته وبره بي ، واشترى لي أساور وقرطاً وخاتماً وغوايش كلها مرصعة بالالماس والاحجار الكريمة، ولم أجد عندي

من عبارات الشكر والامتنان غير الدعاء له بطول العمر .

ومضت اسابيع والرجل الشيخ يتحفني كل يوم بهدية . . . الى ان دعاني ذات ليلة بعد العشاء لنزهة فى الجزيرة فركبنا عربة حنطور ، إذ لم يكن في القاهرة كلها غير بضع سيارات خصوصية ولم تكن التاكسات كثيرة فوق انها مرتفعة الاجور ، الى جانب خوف الناس من ركوبها تجنباً لخطر الاصطدام ، وهكذا كان شأن الناس مع الترام اول عهدهم به .

فلما تعمقنا في الجزيرة والليل حالك ومصابيح الشوارع تشع أضواءها من بعيد اقترب مني ، وجذبني اليه جذبة احسست فيها غير ما كنت أؤمله في هذا الرجل الملاك – الرجل الذي أحببته كأبي ... وضمني في لهفة الى صدره وقبلني قبلة حارة كادت تصعقني ثم لم يمهلني حتى اعنفه ، وهمّ بالاعتداء عليّ عنوة واقتدار .

فتملصت منه ودفعته عني بكل قوتي ، وقفزت من العربة الحنطور التي كانت تسير الهوينا لحسن الحظ . . . وقد اشتهرت تلك العربات كما اشتهرت الجزيرة باعمال شائنة انتهكت فيها الاعراض وارتكبت المحارم .

ووقعت على الارض، لكنني لم اصب بسوء كثير وصرخت :

« الحقوني ... يا شاريش » وجريت مسرعة في الشارع مذهولة ومذعورة التمس النجاة .

وكتبت لي النجاة اخيراً ، عندما وجدتني في شارع الزمالك ، وهناك ركبت عربة حنطور أقلتني الى منزلنا في حارة خلف مسرح رمسيس ، وكان يوسف وهبي إذ ذاك قد اشتراه وتأهب لبنائه واعداده للتمثيل ..

الفصل السادس

فرقة فاطمة رشدي

واصبحت تلميذة لعزيز عيد ، ودفع بي الى الامام في وثبات مذهلة . علمني القراءة والكتابة ، وعلمني التمثيل ، وألحقني بفرقة رمسيس أمثل امام صاحبها يوسف وهبي أدوار صغيرة ثانوية في البداية ، ثم صعدت السلم درجة درجة حتى وصلت الى مصاف الممثلات الاولى .

ويوجب عليّ الوفاء للفن المسرحي عامة والمصري خاصة ان اعطي المغفور له عزيز عيد بعض ما يستحقه ... وما يستحقه عزيز عيد كثير وكثير واني لاعجب لتلاميذه الذين اصبحوا نجوماً واصبح لهم صيت بعيد ونفوذ عظيم ... اعجب لهؤلاء كيف لم يقيموا له منذ وفاته للآن حفلة تأبين ، تناسب نبوغه وعبقريته ، يكشفون فيها عن نواحي عبقريته كممثل فريد ومخرج لا نظير له ومعلم تخرج على يديه جميع أساطين المسرح المصري بلا استثناء ... لمتى يفعلون ؟

فلأقم أنا ببعض هــذا الواجب فأقول في ايجاز : نقل عزيز عيد الاخراج المسرحي من البدائية الى الحرفيــة ومن الفوضى والارتجال الى النظام والتأييد بقواعد الفن الصحيح .

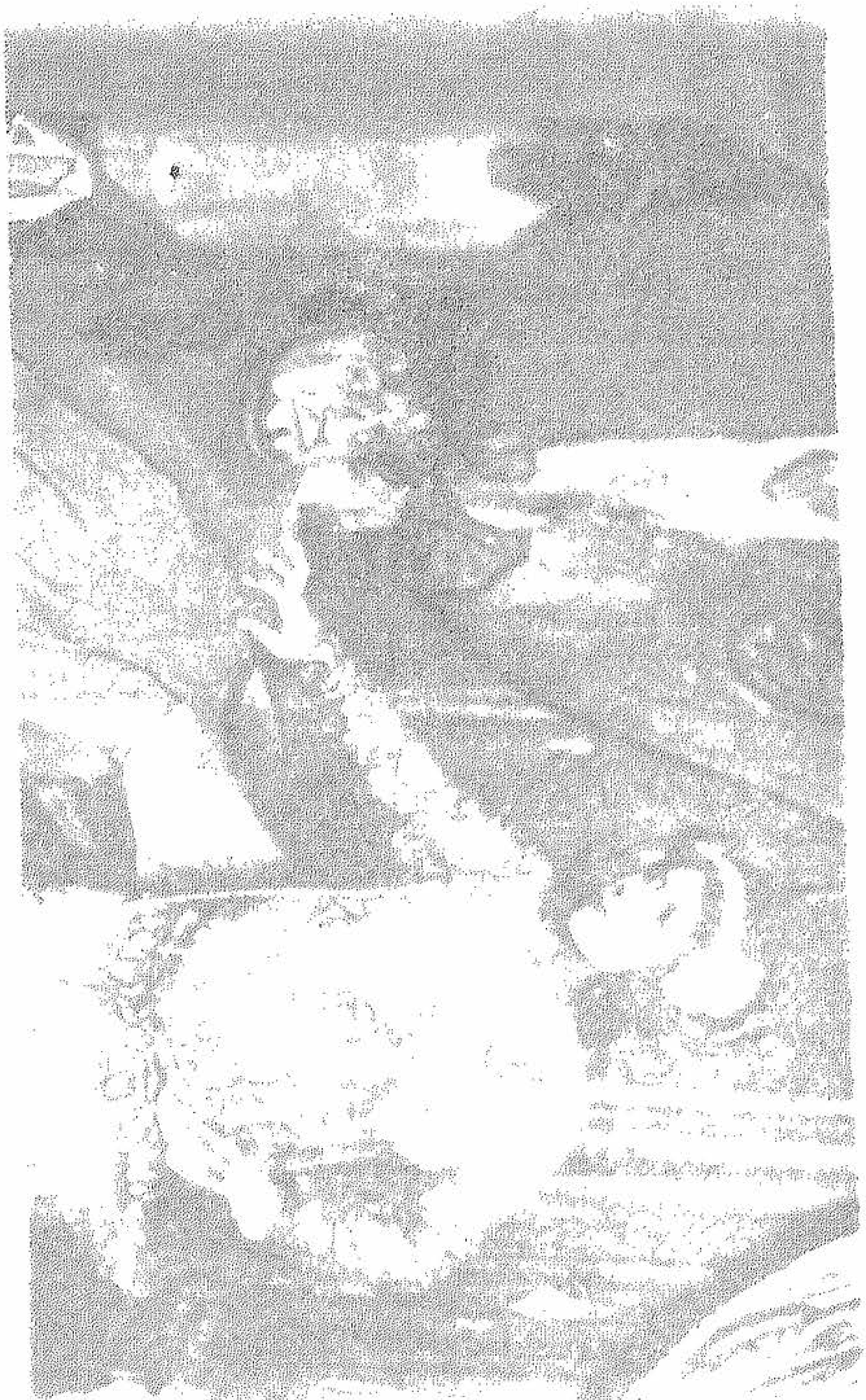
والى عزيز عيد يرجع الفضل في ايجاد الوان جديدة في المسرح المصري العربي فهــو اول من ترجم وأخرج ومثل مسرحيات الفودفيل ، التي مصدرها الريحاني وهو أحد تلاميذه ولقيت رواجاً واقبالاً .

ولم ألبث ان أثرت غيرة وحقد ممثلات فرقة رمسيس الاول عليّ ، وبدأ الدس وبدأت الوقيعة، ووقف عزيز عيد الى جانبي. وتزوجني أولاً .

ثم استقلنا سوياً من فرقة رمسيس . وكان عزيز قد اصبح زوجي ووالد ابنتي الوحيــدة « عزيزة » وقضينا ايامــاً تعيسة شقية ، حتى ساق القدر الي مليونيراً جزائري الاصل اسمه «ايلي الدرعي » كان معجباً بفني أشد الاعجاب .

وتطورت علاقتي بايلي الدرعي الى حب كبير، ووضع امواله تحت تصرفي ، فألفت مع عزيز فرقة باسمي ، وحققت حلمي الكبير ... وطلقت عزيز وعشت مــع الدرعي . . ثم سافرت

بفرقتي الى بيروت وبغداد ودمشق ، وانتهت الرحلة الى خسارة مالية فادحة ، وعدت الى القاهرة وقد قررت حل الفرقة ، ولكن الدرعي أبى وأصر على بقائها ، ودعاني للسفر معه في رحلة الى اوروبا ، لأريح اعصابي ثم اعود لمواصلة العمل بفرقتي. وحجز لنا جناحاً خاصاً « بريو لوكس » في باخرة ضخمة فاخرة .



الفصل السابع

مع المليونير في اوروبا

كانت هذه اول مرة أسافر فيها الى اوربا ، وقال لي ايلي الدرعي ونحن في الطريق :

– سنزور كل مكان في اوربا ، وسأشتري لك كل ما تشتهين من فراء وفساتين ومجوهرات

وفاجأته بقولي :

– ان كل ما أريد ان أراه يا ايلي هو مسارح اوربا العظيمة ، وان أتعرف الى فناناتها وفنانيها الكبار لاستفيد لمشروعاتي المقبلة لمسرحي .

– ألم يكفك ما بذلته من مال وكفاح في مشروعاتك الماضية . ولم تدركي النجاح ؟

– انما تنجح المرأة بالتشبث والاصرار لا بالمال ولا بالكفاح . . انها كالاعلان تنال ما تريد بالتكرار .

– اسمعي يا فاطمة انا لا هم لي في الدنيا الا اسعادك .. ومستعد ان انفق كم قرش من ثروتي في سبيل اسعادك .

– السعادة بنت المشقة . ومن خطل الرأي ان يظن المرء انه يستطيع ان يدرك السعادة عن طريق المال ، ومثله كمثل من يحاول ان يأكل ورق البنكنوت بدل الخبز . ولن تدرك السعادة حتى تقتنصها اقتناصاً ، فهي تحب ان ترى الناس يكابدون ويكدون ويكدحون ويضحون في سبيلها .

– انت مع الفلسفة دائماً .

– بل مع واقع الحياة .

– حسن ليكن ما تريدين .

– لشد ما انت كريم يا ابلي .. ان الرجل الكريم هو من يفكر في شعور الآخرين قبل التفكير في حقوقه وفي حقوقهم قبل التفكير في شعوره

•

وانتهت رحلتنا البحرية في جنوة . . وبدأت رحلتنا البرية الى رومة ..

ووصلنا الى رومه ، ومنها الى جنيف ، ثم باريس . . ونحن نسافر في جناح خاص كامل بالقطار مؤلف من عربة نوم وصالون وقاعة مائدة .

وفي باريس ، في الفندق الكبير الذي نزلنا فيه كانت تنتظرنا مفاجأة مضحكة .. كان ايلي قد ارسل برقية من القاهرة الى ادارة هذا الفندق يقول فيها « احجزوا جناحاً خاصاً مجهزاً بجميع وسائل الراحة .. الى آخره » .. فلما وصلنا وجدنا الجناح محجوزاً وفيه فتاة جميلة من فاتنات باريس ، فسأل ايلي مدير الفندق وهو يشير الى الفتاة :

- ما هذه ؟

وأجاب الرجل في ارتباك وهو ينظر اليّ والى ايلي في نفس الوقت :

– هـ .. هذه يا سيدي .. « الى آخره » .. لم أك اتوقع ان السيدة معك !

وما كدنا نستريح في جناحنا ، حتى طلب ايلي جرائد اليوم وهو يقول لي

– دعينا ننظر اين نذهب هذا المساء .

وجاءت الجرائد ، واخذ ايلي يتصفحها . . وفجأة انطلق يضحك ، وقلت :

ــ ماذا يضحكك ؟

ــ خبر في هذه الجريدة . . لقد اقامت مسابقة ينال جائزتها الوحيدة القارىء الذي يستطيع ان يتبين ساقي مارلين ديتريش بين سيقان نساء كثيرات في مجموعة من الصور نشرتها . . ففاز بالجائزة قسيس .

وسهرنا ليلتنا الاولى في « الليدو » . . وذهبت اليه ارتدي الفستان الذي اشتريته من نابولي ، وعلى كتفي الفراء الذي اشتريته من رومه ، وعلى صدري وفي اذني وأصابعي الحلى الماسية التي اشتريتها من جنيف ، واحاطتني انظار رواد الملهى العتيد . . ولم يستطع ايلي ان يخفي غيرته . . وجاء « الميتر دوتيل » يسألنا ماذا نطلب للعشاء . . وسألني ايلي ماذا اطلب . والتفت الى الميتر دوتيل أرفرف بيدي كما ترفرف الدجاجة بجناحيها . وفهم الرجل اني اطلب دجاجة فأحنى رأسه . . وضحك ايلي وضحكت . . وبعد ان طلب العشاء قال لي :

ــ سأعلمك الفرنسية بنفسي . . ولن تكوني في حاجة للرفرفة بجناحيك بعد الآن !

واستمتعت بالعرض المسرحي الضخم الذي يقدمه الليدو .. وعدنا الى الفندق لأقضي ليلة ليلاء مع المرض والالم .. وكان ابلي وهو واقف الى جانب سريري مـــع الطبيب الذي استدعـــاه لاسعافي يضرب كفا بكف ويردد :

— حسدوكى في الليدو والله ينكد عليهم .

واستيقظت في صباح اليوم التالي..او بالتحديد الظهر تماماً ، سليمة معافاة بحمد الله .. وبدأنا نحيا حياة باريس اياماً متتابعة ، النهار في زيارة المعارض والمتاحف والليل بين المسارح والكازينوات وعلب الليل . . وانا اشاهد وادرس . . واقتبس وادخر في رأسي .. بناء المسارح حسب اللون الذى تقدمه ، مسرح صغير للدرام ومسرح كبير للاستعراض .. ليكون كل منهما معداً بما يتناسب وجو الاستمتاع بما يعرض .. وتجربة كنت احلم بنقلها الى القاهرة .. مسرح ليس فيه « عامل كونترول » على الباب ولا « بلاسيهات » لاجلاس الرواد في مقاعدهم ، انما يدخلون ويجلسون مكانهم وحدهم .. والديكورات الضخمة الفخمة .. والتمثيليات التي يمتد عرضها الى ثلاث سنوات ، ولا بد من ان تحجز مكانك لمشاهدتها لشهر وشهرين مقدماً .

وتعرفت بعدد كبير من الفنانات والفنانين . . مستنجيت ،

وسيسل سوريل ، وجوزفين بيكر ، وموريس شيفاليه ، وسكاند ، وشارل بوابيه ، وغيرهم . . وكانوا يبدون دهشتهم لكوني ممثلة في مصر ، وفكرتهم عن مصر الفكرة الظالمة لدعاة الاستعمار انها صحراء جرداء تسير الجمال في شوارعها وتنطلق في اعقابها التماسيح .

ورأيت في باريس بيرم التونسي . . وكان في حالة فقر وضنك شديدين ، واتفقت معه على ان يؤلف مسرحية لفرقتي ويرسلها اليّ في القاهرة .. وكانت هذه المسرحية هي « ليلة من الف ليلة » التي كانت من انجح رواياتي فيما بعد ومثل فيها عزيز عيد امامي دوره الخالد « شحاته » ، وشجعني نجاحها على ان أكلف بيرم بتأليف تمثيلية اخرى لي فألف « قبلة » التي صادفت نفس نجاح سابقتها .

كما تعرفنا بعدد من سيدات ورجال المجتمع الباريسي . . وكان بينهم « ماركيز » . . وكانت مجالسه ولياليه ماجنة حمراء ، ولاحظ ان الخجل والحياء كانا يوزدان خدي فقال لي مرة :

— انك تذكريني بحكاية لطيفة من التاريخ .. عندما تزوج الملك لويس الرابع عشر مدام دى مانتون في سنة ١٦٨٤ كانت

تستدعي طبيبها مرة او مرتين في الاسبوع لكي يفصدها حتى لا تتورد وجنتاها خجلاً اذ تسمع الحكايات الصريحة الجريئة التي كانت تروى في البلاط الفرنسي .

وضحكت وقلت له :

– إذن فسأجيء الى قصرك دائماً ومعي الطبيب .

وتركنا باريس الى « دوفيل » .. وكنت اول فنانة مصرية ادخلها .. وأراد ايلي ان يدخل بي صالة لعب القمار ، واذا بالموظف الواقف بالباب يمنع دخولي ، وسأله ايلي عن السبب فأجاب :

– لان المدموازيل لم تبلغ السن القانوني بعد .

ولم يفلح مع الرجل اقناع او اغراء .. وقلت لايلي :

– معليش .. سأعود الى الفندق ، ولتبق انت لتتسلى باللعب كما تريد ثم تلحق بي .

– لا .. بل انتظري هنا لحظة .

وتركني ، ودخل ، وعاد بعد لحظة ومعه مدير الكازينو ومساعدوه يقدمون لي الاعتذار تلو الاعتذار ، ويدعونني

للدخول في قاعة اللعب وهم ينحنون ويحيون .. ودخلت قاعة اللعب كما تدخل الملكات .. واتضح لي ان ايلي دفع لمدير الكازينو ١٠٠٠ جنيه (حتة واحدة) أجر دخولي .. وفي تلك الليلة خسر ايلي ٢٠٠٠٠ جنيه على مائدة القمار . وترك ايلي المائدة في النهاية وعاد الي ليجدني محاطة بجمع من شباب العالم الاثرياء وكل واحد منهم يدعوني الى غداء او عشاء او سهرة او رحلة في الضواحي .

وانتهت ايام دوفيل ، وعدنا الى القاهرة بعد غياب ٤ اشهر .

وعدت الى المسرح .. والى فرقتي .

•

ووضع ايلي الدرعي تحت يدي كل ما أرادته الفرقة من نفقات وهو يقول لي :

ـ لا بأس . اطلبي ما تشائين .. انني اعرف ان الفرقة هي البئر الذي لا يشبع من الفلوس .

وقلت له في احدى المرات :

ـ فلتعتبر هذا المال قرضاً أرده اليك عند الميسرة ؟

وأجابني وهو يربت على كتفي في حنان وكرم :

ـ المنح خير من الاقراض عندي .. لان العاقبة واحدة في الحالين .. عدم الرد .

وبدأت الموسم بمسرحية ابراهيم باشا .. ولاول مرة يشرك عزيز عيد في اخراجه المسرح بالصالة والممثلين بالجمهور في هـذه الرواية ، ولاول مرة تمثـل ابنتي عزيزة وهي طفلة في هـذه الرواية ، ولاول مرة يدخل العرض السينمائي ليقدم بعض مشاهد المسرحية الجماعية ، ثم تتابعت المسرحيات « الكابورال سيمون » و « سلامته بيصطاد » و « حواء » و«مدام سان‌جين» و « النسر الصغير » و « غادة الكاميليا » .. ولم يكن من السهل مرور معظم هذه المسرحيات من رقابة الداخلية في ذلك الوقت وكان اعضاء اللجنة المكلفة بالرقابة من الشيوخ الطاعنين في السن ، فكنت اذهب اليهم احمل المسرحية بنفسي وقد ارتديت فساتين عارية الصدر والظهر ، فأذهلهم وأثير لواعج ذكريات شبابهم واخرج من عندهم وقد ختمت المسرحية بخاتم الرقابة وأجيز تمثيلها . واذكر من بينها مسرحية كان فيها مشهد أسير فيـه تحت الارض في بحر من الدم واغرس فيه في النهاية نور.. شطبوه اولا قبل ان اذهب اليهم فلما ذهبت صرحوا به .

وجاء الى القاهرة مستشرق انجليزي اسمه « مستر باربر » ليكتب كتاباً عن النهضة المصرية ، وشاهد في ليلة احدى مسرحياتي ، فأعجب بي وبمسرحي ، واخذ يوالي مشاهدة باقي مسرحياتي ، ثم اخذ يدعوني للغداء او العشاء على مائدته .. وعاد الى لندن ، وبعد أشهر ارسل اليّ هدية كتابين : كتاب عن « النهضة المصرية » وكتاباً آخر أصدره معه عن « المسرح العربي » وجعل لي فيه النصيب الاوفر .

انني لم أكن ألهو .. ولم أكن اعيش كأنثى .. كان المسرح حبيبي ومعشوقي وزوجي وولدي .. وكنت اذا ما احرجتني الخسارة في بعض المسرحيات الجأ في السر الى بعض ما اغدقه عليّ ابي من مجوهرات وحلى وانا خجلة من اغراقه معي في خسارتي دائماً .. ولكنه كان لا يلبث ان يكتشف ما فعلت ، ويعوضني الخسارة والمجوهرات والحلى .

ومع كل هذا الجهد والارهاق كنت أخصص وقتاً لدراسة اللغة العربية وآدابها واللغتين الانجليزية والفرنسية والتاريخ .. فقد كنت مغرمة بالتاريخ والسير .. وتعلمت عن نابليون انه لا مستحيل في الدنيا .. وشجعني الايمان بهذه العقيدة على المضي في مغامرتي لتدعيم المسرح المصري بصفة خاصة والمسرح العربي

بصفة عامة بالمسرحيات والاخراج والعناصر الفنية الممتازة ليأخذ مكانه الممتاز بين مسارح العالم . وخصصت بعض حفلات فرقتي لطلبة المدارس والجامعة يشهدون فيها مسرحياتي بالمجان . وظفرت من وراء هذه التضحية منهم بلقب « صديقة الطلبة » فأضفت الى اللقبين السابقين اللذين منحني اياهما الجمهور لقباً جديداً عزيزاً ..

وفجأة في ذات ليلة ، بين فصول احدى المسرحيات طرق باب مقصورتي عزيز عيد ودخل عليّ ومعه رجلان احمد شوقي امير الشعراء و « مستر سمارت » السكرتير الشرقي بالسفارة البريطانية .. وقدمهما اليّ .. وتنافس الرجلان في تهنئتي واطرائي .. وكانت اول مرة أتعرف فيها بشوقي .. وجلس معي فترة في مقصورتي وقال لي انه يتابع مسرحياتي الواحدة بعد الاخرى ، وأنه معجب بي ويفني كل الاعجاب .. وقال لي في النهاية وهو يصافحني :

— سأهديك هدية عظيمة تستحقينها ..

الفصل الثامن

هدايا امير الشعراء

ولم تغب عني طويلاً هدية امير الشعراء .. وكانت هدية عظيمة ، وعظيمة جداً .. كانت تحفته العظيمة «مصرع كليوباترا» اول مسرحية بالشعر العربي . وكانت حدثاً .. وكانت معجزة . ومثلت دور كليوباترا ، أحد ادوار عمري الخالدة .. وجائني شوقي بمحمد عبد الوهاب ليغني في مسرحيته « انا انطونيو وانطونيو انا » لحنه الخالد .. وقررت له أجراً في كل ليلة عشرة جنيهات ، فلما مثلنا المسرحية في الاوبرا توقف وساومني ان أرفع أجره كل ليلة الى ثلاثين جنيهاً .. بدون فصال .. واضطررت الى مداراته والموافقة حتى ينتهي موسمي بالاوبرا ، حتى اذا ما انتهى وانتقلت الى مسرح برنتانيا استبدلته بسيد فوزي .

وفي قمة نشوة شوقي بنجاح مسرحيته الشعرية الاولى قال لي :

– لا بد ان أكافئك يا فاطمة ، ماذا تطلبين ؟

– عدني بألا ترفض طلبي .

أعدك .

– اطلب منك هدية اخرى .. مسرحية سحرية مثلها .. ؟

– فليكن يا فاطمة .. وهذه المرة ستكونين الى جانبي وانا أنظمها .

ونظم شوقي عبقريته المسرحية الثانية « مجنون ليلى » وانا الى جانبه .. كنا نجلس في عش امير الشعراء الجميل على النيل « كرمة ابن هاني » ومعنا محمد عبدالوهاب يغني لشوقي ، وانا الى جانب شوقي وهو يربت على كتفي في حنو حتى يروع في غيبوبة الوحي ، ثم يصحو فيكتب على الورق الذي امامه وحيه من شعر المسرحية الجديدة .. فان لم يجد الورق كتب على كم قميصه الابيض ..

وانتهى شوقي من « مجنون ليلى » وبدأنا البروفات .. واستغرق استعدادنا لها اربعة اشهر .. وافرغ عزيز عيد فيها عبقريته .. وأصر على ان يقدم الصحراء على طبيعتها على المسرح .. وجاء بحمولة ١٥ عربة من الرمل فرشها فوق خشبة المسرح .. كثباناً ومهاداً كما تبدو الصحراء الحقيقية ..

وقدمنا « مجنون ليلى » .. ومثلت ليلى ، ومثل المجنون احمد علام .. وكان نجاح اعظم وأبهر من نجاح مصرع كليوباترا . ولم يقبل شوقي اي أجر للمسرحيتين ، بل أصر على ان تكونا هديتين لي بالفعل .

وجاء يوم ركب فيه عزيز عيد رأسه وفاجأني بقوله :

ــ اسمعي يا فاطمة ، انا قررت أمثل دور المجنون .

وذعرت وقلت له :

ــ موش معقول يا عزيز .

ـ ليه هو علام احسن مني ؟

ــ لا ، بس اصغر منك في السن .. انت سنك اكبر من الدور .

وماله . مانوسيللي مثل هملت وعنده سبعين سنة . وساره برنارد فضلت تمثل غادة الكاميليا لمابقي عندها سبعين سنة برضه .

واسرع يسحب الملابس من علام ، وثار علام ، ولكن عزيز أصر . وعلم شوقي فهدد بسحب الرواية ، كما علم الدرعي وهدد بالتخلي عن التمويل .. ورغم هذا كله مثل عزيز الدور اربعة

ليال .. وسقط في اداء الدور كما توقعت وتوقع الجميع ، وكان علام قد استأجر فرقة من الشبان يجلسون في الصالة ويصفرون لعزيز اذا ما ظهر على المسرح.. وفي آخر يوم اصيب عزيز بانهيار عصبي ، واخـذ يمزق الستائر على المسرح ، ثم لزم فراشه .. ورفض علام العودة لتمثيل الدور .. واضطررت انا انقاذاً للموقف ان أمثل دور المجنون وان أسند دور ليـلى الى زينب صدقي . وبقيت أمثله فترة ، حتى استرضيت علام فعاد اليه . واشهد انني نجحت في اداء دور المجنون نجاحاً شجعني على ان أمثل دور مارك انطوان في مسرحية يوليوس قيصر ودور النسر الصغير في مسرحية النسر الصغير عندما قدمتهما بعد ذلك .

واضطر عزيز ان يسلم بحسن تبصري وحكمة تصرفي ، وان لم يفته في التعليق غروره فقال :

– ان النساء أحكم من الرجال ، لانهن اقل منهن علماً واعظم فهماً .

ولكن ما حدث اغضب شوقي غضباً جعله يتساق مع اغراء يوسف وهبي ، الذي غاظه نجاحي في المسرحيتين واشعل نار المنافسة بين فرقته وفرقتي من جديد .. واستطاع يوسف ان

يقنع شوقي بأن يؤلف له مسرحية شعرية هو الآخر تناسبه ، فألف له « قمبيز » وقدمها يوسف فلم تصادف نجاحاً..ومع ذلك استطاع ان يقنع شوقي بأن يؤلف له مسرحية اخرى فألف له « عنترة » وكان حظها من النجاح اسوأ من حظ قمبيز ..واقسم شوقي ألا يكتب مسرحية بعد ذلك الا لي .. وفعلاً لم تنقض بضعة اشهر حتى عاد اليّ يقول بلا مقدمات :

– فاطمة انا جبت لك هدية ثالثة..هدية من نوع جديد.. غادة الاندلس .. اول مسرحية اكتبها بالنثر .

وقدمت المسرحية ، وكان نجاحها مذهلا . واذكر انني وانا أزور شوقي وجدته قد كتب اكثر من مسودة لغادة الاندلس وسألته عن السبب فأجابني :

– هذ ليس بشيء .. ان في المتحف البريطاني بلندن خمس وسبعون مسودة لقصيدة توماس جراي التي سماها « مرثية في فضاء كنيسة في الريف » وقد كتب جراي المسودة الاولى فلم تعجبه فكتب الثانية فالثالثة ، وهكذا ، حتى كتبها خمساً وسبعين مرة فارتضى المسودة الاخيرة .

قلت :

– اني فخورة بنجاحي الذي ظفرت به في مسرحياتك .

وربت شوقي على كتفي بحنوه الذي عودني وقال لي في عمق :

– في الحياة غرضان حقيقان بالعناية، ان تظفري بما تبغين، وان تعرفي كيف تستمتعين به بعد ذلك، وأحكم الحكماء وحدهم يدركون الغرض الثاني .. والمهم هو المستقبل .

قلت :

– اسمح لي ان أجيبك بكلمة احفظها من كلمات نابليون .. لست أهاب غدي، فقد ابليت امسي، واني لأحب يومي .

– انني أحب فيك هذا الاعتداد بشخصيتك والاحساس بنفسك .

•

واتجهت للتشجيع التأليف المحلي . وكان سليمان نجيب وقتها في ضنك بوهيميته، وكان صديقاً عزيزاً لي، وكان يستلف من آن لآخر جنيهاً من ابلي او خمسين قرشاً مني « او حتى عشرة قروش ان لم يجد معي غيرها وهو يقول لي :

– معلهش هاتي العشرة صاغ .. سيدنا علي كان يقول : لا تستح من اعطاء القليل ، فان الحرمان أقل منه .

وفي يوم جاءنا انا وايلي وقال لنا بعصبيته التي كانت معهودة فيه :

– هاتوا جنيه كان .. وأعمل لكم باللي تخدته منكم رواية .. اتفقنـا .

وقال له ايلي وهو يعطيه الجنيه :

– اتفقنا .

وذهب سليمان ، وعاد بعد اسابيع يحمل في يده مسرحيته التي لا تنسى « ٦٦٧ زيتون » مسرحية محلية خفيفة . . وقرأها عزيز ، وطار فرحـاً .. وقدمناها فنجحت نجاحاً مذهـلا ، وكانت من دعامات المسرح المحلي الاساسية .

وفي هذا الوقت تعرفت بوداد عرفي ، وعرض علي العمل في السينما ، فقلت له انني كرست حياتي وفني للمسرح وحده ، وتركني واتفق مع عزيزة امير .

وأردت ان أقدم مسرحية عنوانها « زليخة » عن قصة سيدنا

يوسف وزليخة المعروفة ، وثار الازهر عليّ ، واضطررت الى مواجهة مشايخه الثائرين عليّ . ولم افلح في اقناعهم بالتصريح بالرواية الا بعد ان قلت لهم انني أحفظ القرآن وسمعت لهم بعض سوره .

ولم تكن هذه اول أزماتي مع رجال الدين ، فقد سبق ان واجهت أزمة أشد لما أسلم عزيز عيد وتزوجني ، اذ ثار عليّ المتزمتون من المسيحيين وانهالوا عليّ بالسب والشتم شفهياً وتحريريا ، ولذلك لما عرض عليّ ايلي الدرعي ان يسلم ويتزوجني قلت له :

– لا . ابداً . مستحيل . اليهود يقتلوني .

فقال لي :

– طيب انا عاوز أبني لك عمارة تنفعك قدام .

قلت :

– لا . اللي تدفعه في العمارة أصرفه على الفرقة احسن .

– الفرقة بلاعة ، وكفايه اللي خدته منك .

– معليش ، الفرقة قبل مني .

- خلاص الفرقة الفرقة .. زي ما انتِ عايزه .

وكان كل همه ان يرضيني، وكان يعلم انه لو تركني وهو عجوز قلما يجد من ترضى به ، فان في انتظاري مليونيرات مثله او اغنى منه ، واصغر سناً في الوقت نفسه .. كان الامر بالنسبة اليه تنازع بقاء .

وعدت الى تقديم المسرحيات العالمية .

قدمت « البعث » لتولستوي و « العاصفة » لشكسبير . . ولم تصادفا اقبالاً من الجمهور ، وبدأت الخسائر . .

وقلت لايلي الدرعي وانا مشفقة عليه من عبء هذه الخسائر:

- اسمع يا ايلي، ساعوضك خسارة هذا الموسم. عندي فكرة .

فكرة ايه ؟

- ح آخد الفرقة واسافر الى تونس والجزائر وتولس ومراكش . دي بلاد لسه ما رحتهاش فرق مصرية . وستكون رحلتي اليها رحلة غزو .

- بل رحلة مغامرة . اولاً البلاد دي معظم اهلها بيتكلموا

فرنساوي وما يعرفوش عربي . قصدي طبعاً الناس المثقفين اللي يروحوا المسرح . وما تقدريش تعتمدي على الناس العوالم لانهم فقراء وما يقدروش على ثمن التذكرة . انتي عارفي اني من الجزائر وعارف كل حاجة عن البلاد دي

– معلهش . سأخفض ثمن التذاكر .

– فيه حاجة كان ثانية . البلاد دي فيها ثورات دلوقت من الوطنيين ضد الفرنساويين ، وخطر السفر اليها دلوقت .

– ما يهمش . انا ح اقدم الروايات الوطنية اللي توافق الثوار .

– في الحالة دي ستتعرضين لمضايقة السلطات الفرنسية ؟

– ما يهمش برضه .

وأدركتني عصبية مفاجئة ، وصحت في وجه ايلي الدرعي :

– انا قررت أسافر ولازم أسافر .

ولاول مرة يثور الرجل الذي يربطني به حب كبير في وجهي ويصيح وهو يعطيني ظهره لينصرف :

– اذا سافرتي الرحلة دي، ما فيش ولا قرش تعريفة تاخديه مني بعد كده !

ومضيت أتم الموسم ، وأعد المدة في نفس الوقت لرحلة شمال افريقيا . .

قدمت « انا كارنينا » تحفة تولستوي .. واخرجتها بنفسي ، إذ كان عزيز عيد قد صقلني في الاخراج الى الحد الذي يترك لي وحدي فيه مهمة أخراج رواية عالمية ضخمة مثل انا كارنينا . . وعدت الى تقديم مسرحيات شوقي ، بعد بروفات جديدة كما لو نقدمها لاول مرة ، فقد كان شوقي يحرص على سلامة ادائنا لها ، وكان يرسل الدكتور سعيد عبده الى هذه البروفات ليضبط لغتنا العربية مع نطق الشعر . وفي هذه الاثناء كان « الاستاذ باربر » ألمستشرق الانجليزي والاستاذ السابق بجامعة القاهرة قد ترجم مجنون ليلى الى اللغة الانجليزية ونشرها في لندن ، بمقدمة قدم فيها شوقي ، وقال عنه انه جاء بمعجزة ، إذ طوع الشعر العربي لأول مرة وفي ابداع مشرق للقصة المسرحية ، ولم يكن في هذا العمل شاعراً فحلا فحسب ، بل جمع الى الشعر العبقري قدرة رائعة على بناء القصة المسرحية .

وأهداني الاستاذ باربر ترجمة لمجنون ليلى ، مع رسالة يعبر

فيها عن أمله في أن يراني يوماً مع فرقتي نمثلها بالانجليزية على مسرح كوفنت جاردن او مسرح دروري لين بلندن « او على احد مسارح برودواي بنيويورك ، وأكد لي انه لا يخامره أدنى شك وقتئذ في ان الجمهور الانجليزي والاميركي سيصفق لي ، وسيمجد النقاد المسرحيون هناك هذه التحفة الرائعة تمثيلا وتأليفاً واخراجاً كما قدمناها في القاهرة .

وكنت كلما أعدت تقديم مسرحية من مسرحيات شوقي كلما لاحظت ازدياد اقبال الجمهور على مشاهدتها، دليل استساغته وهضمه لشعرها الموسيقي العلوي واستطابته لتمثيلها . وكان شوقي يواظب على حضور مسرحياتي في بنوار حفظته له بصفة دائمة . وذات ليلة عقب انتهائي من تمثيل دور كليوباترا زارني في غرفتي الخاصة وراء الكواليس وهنأني على نجاحي المتزايد الصاعد في اداء ادوار مسرحياته وقال لي :

– لقد شاهدت طلبة مدرسة الحقوق يجرون عربة سارة برنار بدل الخيل ، لما زارت مصر لتمثيل بعض مسرحياتها في مسرح عباس .. وانك لجديرة بمثل هذا التكريم .. وانا أعد لك الآن هدية جديدة ، مسرحية علي بك الكبير ..

ولم أك اخشى شيئاً كما اخشى الحشرات والهوام ، فما بالك

بالثعابين . التي كنت اموت منهـا فزعاً ، ومع ذلك فان موقف انتحاري في مسرحية مصرع كليوباترا كان يحتم علي ان اضع في صدري ثعبانا حقيقيا .. وقد استحضر لي عزيز عيد أحد الحواة الرفاعية فدربني على مسك ثعبان نزعت اسنانه ، وبالرغم من ذلك لم أكن أطمئن للمسات الثعبان اللينة ، وكنت أرتعد خوفا كل ليلة .

وكان شوقي يحضر بروفات مسرحياته في بعض الاحيـان ، ويجلس صامتاً ورأسه تهتز متأرجحة ذات اليمين وذات اليسار في حركة متزنة واحدة .. وتلك كانت علامة على انه يقرض الشعر .. وكان رحمه الله يقرض الشعر في حال يقظته ، ويقرضه وهو يحدثك ، ويقرضه وهو هائم في الطرقات ، ويقرضه حتى وهو على المائدة يأكل ، ولا ينقطع عن قرض الشعر الا وهو نائم .. ومن يدري ، لعله كان يقرضه في احلام المنام مثلما كان يقرضه في احلام اليقظة .

•

وحدث لي في تلك الايام حادث طريف .. وقع في غرامي أحد طلبة كلية الحقوق الاثرياء، وهو اليوم من المحامين المشهورين،

ولم تكن مقابلتي من الامور السهلة ، فأرسل الي هـذا الطالب رسالة يقول فيها انه على استعداد لان يدفع لي أي مبلغ اطلبه لو حصل على خصلة من شعري لا يزيد وزنها عن جرام واحد فقط ليحتفظ بها . وفتحت الخطاب سكرتيرتي، وكانت ذكية ناضجة فأرادت استغلال هذا العرض ، فاتصلت بالطالب المغرم الولهان وطلبت منه الحضور الى مكتبها ، فلما جاء قالت له انها على استعداد لان تقدم له خصلة من شعري اذا اعطاها خمسين جنيها. ولكن صاحبنا قال لها انه يفضل لو قدمت انا اليه خصلة الشعر بنفسي ، وفي هذه الحالة سيرفع المبلغ الى مائة جنيه .. فقالت له انها ستعرض علي الامر في الحال ، ودخلت على مكتبي لتنقل الي عرض الشاب . وكان معي صديقة لي سمعت ما قالته السكرتيرة فصرخت تقول لي :

– حذار ، ان هذا الشاب يريد ان يسحر لك .

وصدقت . . ورفضت العرض ، ونهرت السكرتيرة ، وأمرتها بطرد الشاب في الحال ولو استعانت بالبوليس .

ومرت الايام والسنين . والتقيت به . . وتذاكرنا القصة ، وصارحني بأنه كان ينوي ان يسحر لي فعلاً .. ليتزوجني ..

●

وحادث طريف آخر اذكره للآن . . على أثر نجاحي في احدى مسرحياتي دعاني انا وعزيز عيد الصديقان الاستاذان حبيب جاماتي واسعد رامي الى مأدبة عشاء أقاماها لي بمناسبة نجاح المسرحية . وبعد انتهاء العشاء اقترح رامي على المدعوين ان يقوموا برحلة نيلية في ضوء القمر . ولقي الاقتراح ترحيباً اجماعياً . فاستقللنا عربة حنطور اوصلتنا الى روض الفرج . ومن روض الفرج استأجرنا زورقاً وركبنا فيه جميعاً .

وكان مقدراً للرحلة ان تنتهي كما بدأت في سلام لولا ان غفلت عين المراكبي قليلاً ، فاصطدم المركب الصغير الذي كنا فيه بمركب كبير محمل بالاحجار ، فتحطمت مقدمته ، وتدفقت المياه الى جوفه .. ووجدنا انفسنا في عرض النهر تتقاذفنا لجته في قسوة .. وكدت . . وانا لا أجيد السباحة — اغرق لولا ان تداركني حبيب جاماتي وحملني بين ذراعيه حتى وصل بي الى الشاطىء بعد ان بذل مجهوداً جباراً .. اما عزيز عيد ، وكان لا يجيد السباحة هو الآخر ، فقد امسكه رامي من طرف سترته وجره الى الشاطىء جراً . وما ان بلغناه حتى ارتمينا نحن الاثنين على الارض فاقدي الرشد .

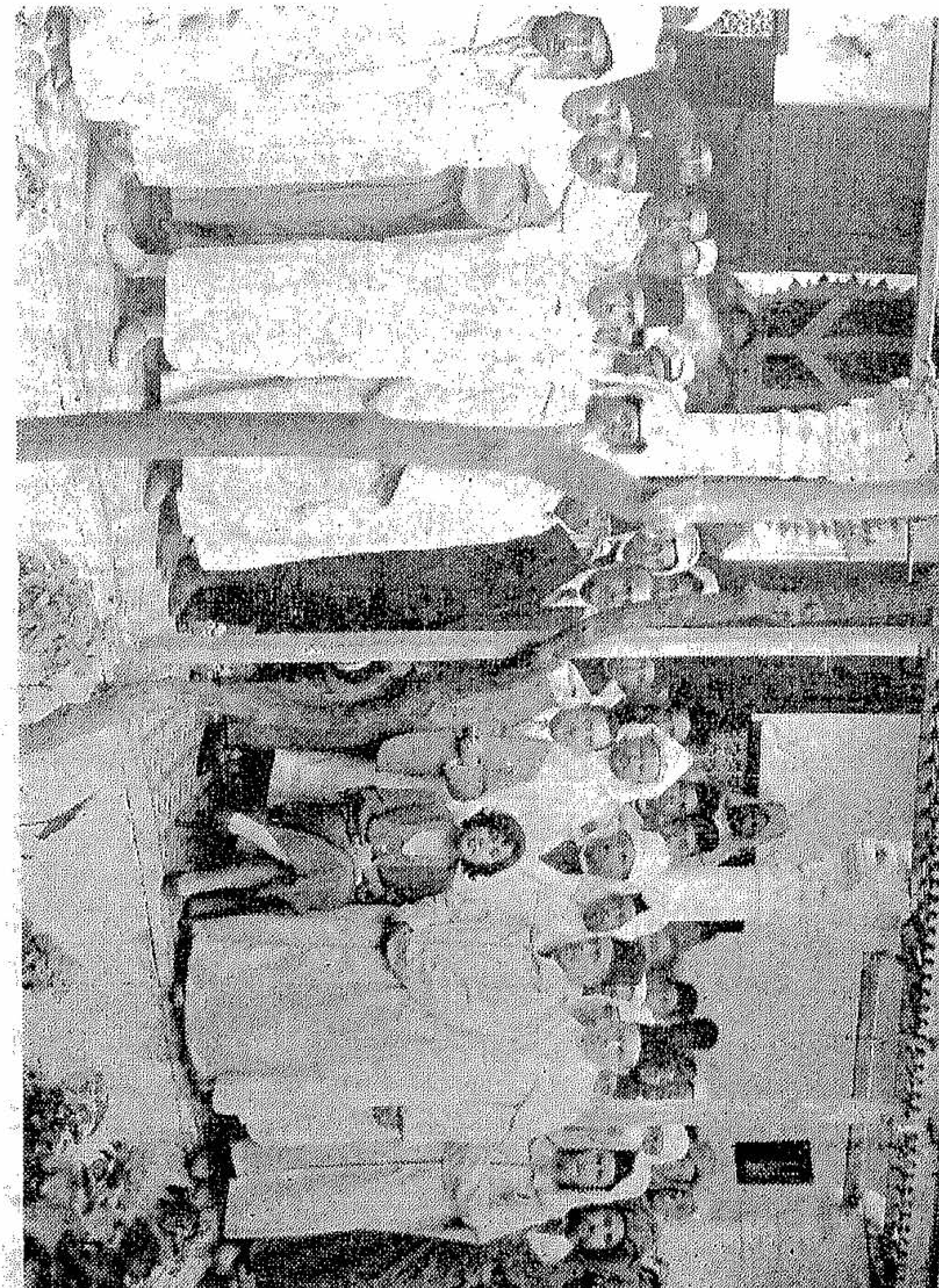
●

وكان عزيز عيد يحتاط دائماً بأن يحفظ كل دور من الادوار

اكثر من ممثلة او ممثل في الفرقة ، حتى اذا تغيب ممثل او ممثلة لأمر من الأمور قام بديله او بديلته بالتمثيل .. ودعيت ذات ليلة لحضور حفلة في بيت من بيوت سراة القوم في حي الحلمية.. لكني انتبهت فجأة لاجد انه لم يبق على موعد رفع الستار اكثر من ربع ساعة .

كان في استطاعتي ان اركب سيارة وألحق بالمسرح قبل رفع الستار . ولكن الحفلة كانت شائقة جداً ، ولم تطاوعني نفسي على تركها فماذا أفعل ؟ كانت معي بديلتي .. لكن المصيبة ان بديلتي لم تكن اقل مني اعجاباً بالحفل .. وفكرنا في حل المشكلة ، فخطر لنا ان نقترع ، فأخرجنا ريالاً فضياً واختار كل منا أحد وجهيه ، ثم رميناه فشاء سوء حظي ان تصيبني انا القرعة .

واسرعت اركب سيارة احد الاصدقاء ، فأوصلتني الى المسرح بعد خمس دقائق ، ولم يكن هذا التأخير ليسبب ضرراً لاني لا اظهر على المسرح الا في النصف الاخير من الفصل الاول. لكن كم كانت دهشتي حين وجدت الفرقة تمثل رواية اخرى .. فقد فطن عزيز الى تغيبنا انا وبديلتي قبل رفع الستار ، ورأى ألا يغامر بالاعتماد علينا وأمر بتمثيل رواية غير التي نشترك فيها.



الفصل التاسع

بين المجاهدين الجزائريين والمخابرات الفرنسية

وجاء موعد الرحلة ، وسافرت بفرقتي كاملة ، وبين افرادها زينب صدقي وحسين رياض الى تونس اولاً . وكان في استقبالنا مندوب الباى وجموع كبيرة من الشعب التونسي .. وقدمت مسرحياتي التي سبق لي ان قدمتها في القاهرة ، وأضفت اليهـــا مسرحية جديدة اسمها « سلامبو » عن قرطاجنة القديمة ، اصل تونس ، وفيها تمجيد لتاريخها.. وكان ضباط المخابرات الفرنسيون يعترضون عليّ بعض مسرحياتي لما تتضمنه بعض مشاهدها من اثارة وطنية .. ولكنهم ما كانوا يستطيعون ايقافها مـع اقبال الشعب ورعاية الباي الذي اقام لي حفل تكريم ، ومدت الموائد حول النافورات في حديقة قصره ، وقدم الينا الطعام في آنية من الفضة الخالصة ، وعزف لنا الموسيقى التونسية ونحن نتناول الطعام تحت موكب من ١٠٠ عازف ورقصت على موسيقاهم ٥ء

راقصة من اجمل بنات تونس ، وشاء الباي ان يضاعف من تكريمه لي فأمسك بالعود يعزف لي احدى مصنفاته الموسيقية ، وهو عازف عود ماهر . وكان ايضاً مغرماً بالنكتة .. واذكر نكتة رواها لي خلال هذا الحفل .. هجم كلب على سيدة فعضها فذهبت الى طبيبها ، ففحصها وأشار عليها بكتابة وصيتها لان الكلب مصاب بالسعار (الكَلَب) وقد تموت سريعاً بهذا الداء .. فقضت فترة طويلة والقلم بيدها تدون به على الورق حتى سألها الطبيب :

– لقد أسهبت في كتابة وصيتك ؟

فردت متعجبة :

– وصيتي ! انني اكتب اسماء الاشخاص الذين أود ان أعضهم .

وفي الحفل كانت احدى الممثلات شديدة الجفاء ثقيلة الوطأة على المدعوين . ولاحظ الباي ضيقي منها ، فمال على اذني يهمس فيها معتذراً :

– ارجو ان تغتفري لها سلوكها ، انها الليلة منطلقة على سجيتها .. بدون تمثيل !

ودعاني الباي لاشهد الصيد ، وكان ضيفه يومئذ شخصية

عربية كبيرة .. ولم يكن الضيف يجيد الرماية فأخطأ الصيد اكثر من مرة حتى أدركه الخجل واليأس ، واذا بالباي يخف اليه لينقذه من خجله ويأسه بأرق واجمل كلمات لبقة :.

– انك يا سيدي أحكمت الرماية ايما احكام.. ولكن العناية تولت الطير برحمتها .

●

وتركنا تونس الى الجزائر ..

وصلنا اليها ونيران الحركة الوطنية تتقد فيها .. واخذت اقدم مسرحياتي تحت رقابة المخابرات الفرنسية، وحرارة الحركة الوطنية تذكي حماسنا فيما نقدمه من مسرحيات عربية ، وتدفعنا الى الاجادة والتفوق .

وكان مدير المخابرات الفرنسية شابا جميلا أنيقاً .. وكان لا يتركني أغيب عن بصره لحظة . . وحدث ان تعرفت بضابط شاب جزائري من عائلة عريقة كبيرة ، إبدى اعجابه بي اول الامر .. ثم اظهر لي اطمئنانه اليّ ، وصارحني بانه من قادة حركة المقاومة الوطنية .. وان مدير المخابرات الفرنسي يراقبه ويترقب الفرصة التي يتصيده فيها .. وكان لا يذكر هذا الضابط

الفرنسي الا ويلعنه ويصور شدة كرهه له ومقته لرؤية وجهه امامه .. وكانت الخطوة التالية ان صارحني الضابط الشاب الجزائري بحبه لي ، وتوسل اليّ ان ابادله حباً بحب .. ولم اشأ ان أصدمه واصارحه بأنني لا استطيع ان احبه لمجرد ان يطلب مني ان احبه .. بل اظهرت له عطفي وتقديري وان يترك للزمن ان يقلب هذا العطف والتقدير الى حب .. ولكنه ثار في رقة وقال لي :

– انا لا اضمن الغد . انني مريض بذات الرئة ، وموتي محتوم .

وفوجئت .. وانهرت . . وانهمرت دموعي . ووجدت نفسي اقول له :

– انني احبك .

ولم اشهد فرحة في حياتي مثل الفرحة التي ارتسمت على وجه الضابط الشاب عندما قلت له انني احبك .. ولم أشهد سعادة مثل السعادة التي غمرته في تلك اللحظة كما لو كانت شحنته بشحنة كهربائية تشع حوله بريقاً ولمعاناً ..

واصبحنا لا نفترق .. واصبحت اتردد معه على المراكز التي

يجتمع فيها مع زملائه الشبان الذين يتزعمون المقاومة الوطنية .. وانا اعتقد طول الوقت، انه مع احتياطه واحتياطهم ألا رقيب علينا من مخابرات المستعمر .. حتى كان يوم ذهبت فيه على موعد مع صاحبي الضابط الشاب الى احد هذه المراكز .. وما كدت أدفع الباب حتى وجدت المكان خالياً منه ومن صحبه .. ورأيت امامي الضابط الفرنسي رئيس المخابرات وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة وقال لي :

– آسف يا سيدتي .. ان صاحبك قد ذهب .. ولن تجديه بعد اليوم ، فقد اطلقنا عليه الرصاص صباح اليوم ، تنفيذاً لحكم صدر عليه بالاعدام من المحكمة العليا .

●

تركت الضابط الفرنسي رئيس المخابرات دون ان أرد عليه بكلمة . وعدت من حيث أتيت الى الفندق ، وانا حزينة مهدمة .. لقد كان موت الضابط الشاب الجزائري اول صدمة حقيقية تهد كياني .. ولم يفتني وانا في طريق العودة ان اتساءل لماذا لم يقبض علي رئيس المخابرات ، او لماذا لم يستوقفني على

الاقل ليحقق معي ويسألني عن دوري مع صاحبي وزملائه ، مع ما بدا من علمه بحقيقة صلتي به وبهم ؟

وكنت أراسل ايلي الدرعي من مرحلة الى اخرى في رحلتي، أنبئه بأخباري وأطمئنه الى نجاحي المتواصل وشماتتي فيه إذ خيب الله ظنه فيما توقعه للرحلة من فشل .. وكان يرد عليّ ، ولا يذكر في رسائله غير كلمات الشوق والهيام والحب والغرام والاخلاص واللهفة على لقائي من جديد ، يكررها من سطر لآخر .. وكان لا يستطيع اللحاق بي لانه كان ممنوعاً من العودة الى هذه البلاد ، إذ كان من الوطنيين المجاهدين الذين وضعتهم السلطات الاستعمارية الفرنسية في القائمة السوداء .. ووجدت نفسي بعد ان عدت الى اللوكندة أمسك بالقلم واكتب رسالة لايلي اصارحه بكل ما حدث ، وانني بعد ان فقدت الشاب الذي احببته لا استطيع ان اواصل معه حبنا الذي انقطع .. وانه لا فائدة من جبر الصدع الذي اصاب العلاقة التي كانت تربطنا .. وبذلك أسدلت الستار على علاقتي مع ايلي .. ستار الختام .

وناديت خادم الغرفة ، ودفعت اليه بالرسالة ليلقي بها في صندوق البريد ، وقلت له :

– قل لهم في المكتب ان يرسلوا اليّ الحساب .. فسوف نرحل في صباح باكر .

ونبهت على افراد الفرقة ان يستعدوا للسفر الى المغرب ، نهاية المطاف في رحلتنا .

●

وفي صباح اليوم التالي ،وبينما كنت في الميناء اتأهب لركوب الباخرة مع افراد الفرقة ، فوجئت بالضابط الفرنسي الشاب رئيس المخابرات يقترب مني وينتحي بي ناحية ، ويقول لي بصوت قريب للهمس :

– سيدتي لا تستغربي لما اقول .. واسمحي ان ابدأ بتوجيه هذه الكلمة اليك .. انني احبك ..

– تحبني ؟! . ان ما بيننا هو البغض ..

– ولم لا .. ان حب شيء بعينه لا يؤلف بين قلبين وانما يؤلف بينهما بغضه .. انك تبغضين عملي الذي يمليه عليه واجبي نحو بلادي .. وانا ايضاً ابغض هذا العمل وان كنت لا استطيع

الخلاص منه .. وكل ما افعله ان اخفف ما استطعت من وخز الضمير وانا أؤدي عملي .. أتدري لماذا لم اقبض عليك ، ولم أمسك بسوء رغم انني اعرف بصلتك بذلك الضابط الجزائري الشاب وبصحبه الثوار منذ البداية ؟

– لقد سألت نفسي هذا السؤال ولم أجد له جواباً .

– الجواب هو انني احببتك منذ اللحظة الاولى التي وقعت عيني فيها عليك .

– لست افهم .. اي حب هذا الذي تتحدث عنه . . وكيف يكون ؟

– يكون بمعجزة .. اننا نكون أدنى الى ادراك معجزة الحياة ، لو علمنا ان الجنين يبلغ من ضآلة الحجم في آخر الاسبوع الاول من تكونه ، بحيث لا بد لك من سبعة أجنة حتى تملأ مكان النقطة التي توضع في آخر الجمل عند الكتابة .

– عجيب هذا الوصف للمعجزات..وعجيب اختيارك له !

– معذرة .. فأنا في الاصل طالب طب .. ولكنني فشلت في دراسة الطب ، واتجهت الى الكلية الحربية ..

– ولكن مع ذلك انا لا افهمك . لماذا تصارحني الآن بما تزعمه من حبك لي وانا راحلة .. ما الفائدة ؟

– انني لم أشأ ان أحرجك وانت تقيمين هنا . . وانتظرت هذه اللحظة لاصارحك بحقيقة شعوري نحوك . . ومن يدري ، فربما التقينا مرة اخرى .

– وهل تنتظر مني ان أصدقك ، ما الذي يدريني بما تبطنه في نفسك ؟

– انني أؤمن يا سيدتي بان آمن طريق واقصره يكفل للانسان ان يعيش في هذه الدنيا موفور الكرامة هو ان يكون ما يبطنه في نفسه كالذي يظهر منه للناس .

– ولكن هل نسيت الضحية .. الضابط الجزائري صاحبي؟

– لست انا الذي قتله .. او تسبب في قتله .. لقد قبضوا عليه وهو في طريقه الى المكان الذي وجدتني فيه . . واخذت انا على عاتقي ان افتش المكان واضبط من فيه لانني كنت اعلم انك آتية اليه .

– ولم أحر جواباً .. ومضى هو يقول لي بصوته الهامس :

ـ الى اللقاء .. ولا اقول وداعاً .. وكل مـا ارجوه منك حتى نلتقي ان تلزمي الصمت .. ان الفم المطبق لا يدخـله الذباب .. هذا مثل فيليبني « ومعذرة مرة اخرى اذا كنت لم أحسن اختيار المثل كعدم احساني اختياري وصف المعجزات .

وجررت نفسي جراً الى سلم الباخرة ..

وأبحرنا الى « الرباط » عاصمة المغرب .



الفصل العاشر

مهمة سرية

وبدأت اقدم مسرحياتي في الرباط .. والقي نفس التكريم ونفس النجاح اللذين لقيتهما في الجزائر ، وفي تونس قبلها ..

ووجدت جوزفين بيكر الراقصة الفرنسية الزنجية الفاتنة هناك ، وكنت قد تعرفت اليها في باريس خلال رحلة الى اوربا . : وجدتها تنزل في نفس الفندق الذي نزلت فيه في الرباط .. واذكر انني ساعة اكتشفت وجودها كانت تجلس في الشمس في شرفة الفندق ، منهمكة في شغل الابرة « التريكو » .. وسألتها بعد التحية والعناق :

– ماذا جئت تفعلين هنا ؟

– جئت للترفيه عن قوات الجيش الفرنسي الموجودة هنا .

– وما هذا الذي تصنعينه بابرة التريكو ؟

– شيء من اجل الجنود .

ـ بلوفر ؟

ـ لا . مايوه سباحة لي !

* * *

هناك حكاية عربية قديمة مأثورة .. ان رجلاً اراد ان يعقد صفقة مع رجل آخر ، وقبل ان يعقدها ذهب يستشير شيخاً حكيماً من اهل بلده .. فسأله الشيخ :

ـ هل تعرف هذا الرجل الذي تريد ان تتعاقد معه من مدة طويلة ؟

ـ لا .

ـ هل عاملته قبل هذه المرة ؟

ـ لا .

ـ هل سافرت معه الى خارج البلاد ؟

لا .

ـ اذن لا تعرفه .

وهذا ما حدث لي مع افراد فرقتي . لم اعرفهم على حقيقتهم

الا لما سافرت بهم الى الخارج في رحلتي هذه .. لقد غار بعضهم لنجاحي وطمع في ان يكسب لنفسه ما كنت اكسبه لنفسي . وكانت النتيجة ان انشقت نصف الفرقة عني بزعامة زينب صدقي وحاولت هذه النصف فرقة العمل مستقلة عني ومنافسة لي فلم توفق ، وما صدق المنشقون افرادها ان التمسوا طريقاً للعودة الى القاهرة قبلي .

ومضيت اكمل الرحلة في بلاد المغرب بنصف الفرقة المتبقى معي ، واكرمني الله بالتوفيق الى آخر حفلة اقمناها في طنجة . وعدنا الى القاهرة .

* * *

عدت الى القاهرة ، ومعي كسبي من الرحلة ، ادخرته لأبدأ الموسم الجديد معتمدة على نفسي وعلى مالي .. وحاول ايلي الدرعي اعادة مياه علاقتنا الى مجاريها فكنت اجيبه على كل محاولة يحاولها في هذا السبيل بكلمة واحدة فقط :

— لا فائدة .

— وبدأت الموسم الجديد في مسرح الكورسال اولاً حيث قدمت مسرحية شوقي الشعرية الجديدة « علي بك الكبير »

ومسرحية فيدو العالمية « خلي بالك من اميلي » .. ثم انتقلت من مسرح الكورسال الى مسرح برنتانيا حيث قدمت مسرحية عباس علام « توتو » ثم مسرحية « الزوجة العذراء » .

ولكن كان الراديو قد بدأ يصرف الناس عن المسرح. وكانت السينما المصرية قدبدأت تتطور من صامتة الى ناطقة وتزيد الناس انصرافاً عن المسرح .. فصادفت كساداً لم اك اتوقعه وخسرت ما كسبته في رحلة شمالي افريقيا وفوقه كل ما كنت املك من حلي ومجوهرات. . واضطررت في النهاية الى ان احل الفرقة، بعد ان احصيت خسائري الاجمالية فيها، فوجدتها تصل الى ٧٠٠٠٠ جنيه ، وما ادراك مثل هذا المبلغ في ذلك الوقت .

وكان يوسف وهبي قد سبقني الى نفس المصير ، بعد ان خسر هو الآخر ٢٥٠٠٠ جنيه في المسرح. . فأقفل مسرح رمسيس وسافر بفرقته في رحلة الى بغداد ، ثم عاد فحل الفرقة واخذ يشتغل مع توجو مزراحي في السينما ، بادئاً تعاونه معه بفيلم ليلة ممطرة . واردت انا ان اشتغل في السينما ، وان اتعاون مع ستديو مصر ، ولكنني لم اك عند ظن وأهواء القائمين بأمر الاستديو في ذلك الوقت ، فلما اجروا لي الأختبار المبدئي قالوا انني لا اصلح للسينما .

وكان عبثاً العودة الى المسرح .. كان عهد الدرام قد انقضي بعد ان ملها الناس ، وانصرفوا عنهـــا الى الكوميديا التي بدأ نجيب الريحاني يقدمها على مسرح رمسيس بعد ان تركه يوسف وهبي والذي اطلق عليه صاحبه اسم « مسرح ريتس » ليخلصه من آخر شبهة للدرام .

* * *

وفوجئت يوماً بقرار يذاع في الجرائد .. ان الحكومة قررت ان ترعى فن التمثيل بنفسها ، وأن تنشىء فرقة رسمية باسم « الفرقة القومية » تجمع فيها كل العناصر التي كانت في فرقتي وفي فرقة يوسف وهبي . وتعطيهم مرتبات شهرية وتتولى هي الانفاق على اخراج المسرحيات وتحصل الايراد لخزانتهـا .. ونشرت الجرائد اسماء اعضاء الفرقة الجديدة ووجدت اسمي اول اسم وبعده يوسف وهبي ثم عزيز عيد .. واستبشرت خيراً ..

وبدأت الفرقة القوميـــة العمل .. ولكن في جو بغيض من الدسائس والاغراض لم استطع قبوله او الاغضاء عنه فقاومته ، والنتيجة ان بقيت ٤٠ يوماً في هذه الفرقة دون ان يسند الي دور واحد ، فتركتها غير آسفة ، كما تركها يوسف وهبي .

وفي اليوم التالي ، التقيت بزعيم تونسي وطني كبير كان يقيم في القاهرة وقتئذ، ويشارك في الحركات القومية التحررية العربية القائمة في المغرب الافريقي في تلك الايام ، وكان صديقاً اقدره واقدر فيه كفاحه وجهاده ، وكان يحدثني دائماً عن انباء هـذا الكفاح والجهاد اولا بأول في فخر واعتزاز ، فأبارك له ولصحبه ما يفعلون واشعل حماسه اكثر واكثر .

وبمجرد ان رآني هذا الزعيم التونسي قال لي في لهفة :

– اين انت يا مدام فاطمة .. لقد كنت ابحث عنك في كل مكان .

– خير ان شاء الله .

– خير كل الخير. تعالي نجلس في مكان نتحدث فيه .. انني اريدك في مهمة .. مهمة سرية خطيرة .

*

وجلسنا في مكان منعزل ..

وسألت الزعيم التونسي وأنا مأخوذة مذهولة :

– اي مهمة سرية ؟ .. انني لا اشتغل بالسياسة .

– اعرف ذلك .. ولكنك عربية .. وكان لك دائماً دورك

في نشر الثقافة العربية عن طريق فنك .. وقد آن الاوان لأن تخدمي القضية العربية بفنك ايضاً ، وتنضمي بهذا الفن تحملينه كسلاح الى جيش التحرير العربي في شمال افريقيا .. لقد رسمت لك مهمتك مرحلة مرحلة ..

– ارجو ان توضح لي ؟

– ان رحلتك ستبدأ من الاسكندرية ، الى بنغازي ، ثم طرابلس ، ثم تونس ، ثم الجزائر ، ثم الرباط ، ثم طنجة .. وسوف اسلمك مجموعة خطابات منها في كل بلد من هـذه البلاد لشخص سوف يتقدم اليـك ويذكر لك كلمة السر فتسلمينه خطابه .

– كلمة السر ؟ !

– نعم .. حرف ابجدي واحد ، حسب ترتيبهـا في كلمة « كهرمان » . وهذه الكلمة مؤلفة من ستة احرف بعدد البلاد التي ستزورينها في رحلتك .. وعلى ذلك ستكون كلمة السر في بنغازي حرف « كاف » وفي طرابلس حرف « هاء » وهكذا .. وعلى ذلك ستكون الخطابات مرقومـة بالاعداد من ١ الى ٦ لتميزي بينها « الخطاب رقم ١ لبنغـازي » والخطاب رقم ٢ لطرابلس » . وهكذا . ارجو ان يكون الامر قد وضح لك ؟

– نعم .. واضح .. ولكن المسئولية وخطورة المهمة ؟

– ليست هناك اية خطورة ، فقد امنــــا لك الطريق ، واعددنا لك كافة الاحتياطات التي تسهل عليك المهمة. اطمئني مائة في المائة .

– ولكن هبهم فتشوني في الجمرك في بلد من هـــذه البلاد وضبطوا معي الخطابات ؟

– لن يفهموا منها مايريب، لانها مكتوبة بأسلوب الخطابات العادية ، خطابات الاقارب والاصدقاء ولكنها شفرة لا يحلها الا المرسل اليهم .

وبدأ بعد ذلك يحدثني عن الاجر ، فقلت له :

– ولا ملم . ان خدمة الوطن لا تؤجر . وانا واثقة من ان عملي الفني خلال هذه الرحلة سيعوضني وسيجزيني .

– وانا واثق ايضاً ،وأعرف كيف يحبك ابناء شمال افريقيا وكيف يقدرون فنك ومواهبك . ممن ستتكون فرقتك في هذه الرحلة ؟

– مني وحدي .

– منك وحدك ؟ !

ـ نعم سأقدم عرضاً فنياً ، مزيجاً (فاريتيه) بين الغناء والرقص والتمثيل بمختلف الوانه الدرام والتراجيدي والكوميدي .. سأطربهم وابهجهم وابكيهم واضحكهم .

ـ في الحقيقة سيكون هذا عملا فنياً عظيماً لا يقدر عليه سواك .

ـ اتفقنا ؟

ـ اتفقنا

***

وبدأت الرحلة .. سافرت الى الاسكندرية .. وركبت من هناك الى الباخرة بنغازي . . وسفر البحر يدفعك مع صفاء الجو الذي تعيش فيه فوق ظهر الباخرة وتغير بيئة حياتك تغيراً كلياً الى التفكير في نفسك .. تفكيراً هادئا عميقاً .. وقد تعودت فيما مضى اذا فكرت في ازمة او مأساة تصيبني ان اقنع نفسي وأروضها على قبول مشيئة القدر واحتمال قضائه بصدر رحب ونفس راضية .. وعلى هذا ما كدت امضي في رحلتي عبر البحر حتى بدأت التفكير .. انني في ازمة .. ولكن سبق ان عانيت ازمات اشد وانكى . وانتصرت عليها لانني كنت اعد الازمة

التي تصيبني في كل مرة ما عارضاً ولا اعدها ابداً كارثة مهلكة.. وكنت اعتبر حزني والمي من هذه الازمات صدأ غشي نفسي ، وان العمل والنشاط هما السبيل لازالة هذا الصدأ وصقل نفسي من جديد ، ولا اترك امامي فراغاً من الوقت حتى لا استسلم فيه للحزن والالم .. وهاانذا في طريقي الى عمل جديد ونشاط كبير .. فلا بأس .. ولا بأس ..

ولم يطل بي التفكير وقمت اشارك ركاب الباخرة استمتاعهم بالرحلة ولهوهم .. وتعرفت براقصة ايطالية وحسناء حلوة كانت في طريقها الى طرابلس للترفيه عن جنودالجيش الايطالي النازلين هناك .. وكان تعرفي بها على ظهر الباخرة اذ جاءت جلستي الى جانبها على الكراسي الطويلة المريحة المعروفة .. وانست لي ، وحكت لي الكثير عن مظالم استعمار بلادها في ليبيا ، واكدت ان الحال لن يدوم كما هو كائن ، وان مصير هذه البلاد الى الحرية عن قريب او بعيد . واستغربت هذا الحديث من ايطالية .. ولكنني لم البث ان ادركت سره .. فلقد احبت هذه الراقصة ضابطاً ليبياً كان مجنداً في الجيش الايطالي وارادت الزواج منه فحالت قيادة الجيش الايطالي بينها وبين هذا الزواج ، وابعدت هذا الضابط الليبي الى الصومال .. حيث لم يطل اقامته هناك

وقتل في ثورة للاهالي الصوماليين على الاستعمار الايطالي .

*

وصلت الى بنغازي .. ومنها الى طرابلس.. ثم تونس ..

وفي كل بلد منها كنت اصادف النجاح .. النجاح الفني في البرنامج المتنوع الذي اقدمه .. والنجـــاح السياسي في تسليم الخطاب الذي احمله من الزعيم التونسي .. كان الشعب في كل بلد يتقاطر على المسرح الذي اعمل فيه ويتزاحم على مقاعـــده . ويتنافسون على دعوتي الى مآدب وحفلات التكريم التي يقيمونها لي .. وكان الشخص المكلف باستلام الخطـــاب مني يتقدم الي فجأة وخلسة وبصورة لا اتوقعها ، ثم يذكر الحرف كلمة السر فأسلمه الخطاب .. وفي بنغازي كان هذا الشخص خادم الغرفة في الفندق الذي نزلت فيه ، وفي طرابلس كان عازف القانون الذي استخدمته ضمن الفرقة الموسيقية التي استعنت بها في تقديم برنامجي ، وفي تونس كان الحمال الذي حمل متاعي من فوق ظهر السفينة الى الميناء ..

ولكي لا الفت الانظار الي كنت انزل في فنادق متوسطة ، وارتدي ملابس عادية بسيطة، لأظهر دائماً بمظهر الاحتياج لعملي

الفني ، ولأؤكد انه لا سبيل لي للكسب الا من وراء هذا العمل الذي ارتحل به .

ثم وصلت الى « الجزائر » .. وبدأت المتاعب ..

*

بدأت عملي الفني في الجزائر في اول الامر بنفس النجاح الذي صادفته من قبل في تونس وطرابلس وبنغازي .. وبنفس مظاهر التشجيع والحفاوة والتكريم التي احاطني به اهل تلك البلاد ..

وجاءني الرسول المكلف باستلام الخطاب في المسرح يحمل باقة ورود ، متظاهر بأنه سائق سيارة احد المعجبين وانه كلفه بحمل الباقة الي ، وكنت احمل الخطابات معي في حقيبة يدي دائماً حتى لا اتركها في الفندق عرضة للعبث او التفتيش .. وسلمته الخطاب الخاص به بعد ان ذكر لي كلمة السر .. ثم قدمت عرضي المسرحي وعدت الى الفندق .. وما كدت اصل حتى دق جرس التليفون، وكان المتحدث رئيس البوليس الفرنسي وسألني عدة اسئلة شخصية واستوضحني تفاصيل رحلتي ، ثم حياني وانهى المكالمة .. وبعدها مباشرة طرق باب غرفتي ،

ودخل علي احد الخدم ، نفس الشاب الذي تسلم مني الخطاب وقال لي بسرعة :

– العين .. العين ..

– ماذا تقصد ؟

– البوليس .. انهم قادمين لتفتيشك بعد قليل .

وانفلت خارجاً من الغرفة قبل ان اقول له كلمة اخرى ورأيتني افعل اول شيء توحية الحيطة .. اخرجت الخطابات الباقية من حقيبة يدي ، وكان قد بقي خطابان فقط ، واحرقتهما في دورة المياه حتى استحالتا الى رماد ..ودق جرس التليفون ، ودق معه قلبي ، ورفعت سماعة التليفون :

– آ . . لـ . . و

– مدام فاطمة ؟

– و . . ي . .

– هل نرسل لك العشاء بالغرفة ، ام ستتناولينه في الروف؟

– متشكرة .. لا اريد عشاء الليلة .. انني متوعكة ، وسأنام حالا ..

وتركت التليفون .. وآويت الى فراشي .. ولم يغمض لي

جفن .. ولا ادري كم مضى من الوقت ، وانا يقظى مترقبة متوثبة ، حتى دق الباب .. دقاً هادئاً في اول الامر ، ثم ارتفع لما لم اجب ، حتى ضج وصخب ، وصحت بصوت مخنوق :

— مين ؟

— البوليس . افتحي يا مدام باسم القانون .

وفتحت الباب .. ودخل البوليس ..

وكان تفتيش عنيف دقيق شامل ، لم اشهد مثله من قبل ، حتى في السينما .

وبالطبع لم يجدوا شيئاً عندي .. ومثلت ، وأجدت تمثيل دور البريئة المأخوذة بالطبع ، وانا اعارض رجال البوليس في تفتيشهم ، واتهمهم بالتعدى علي وانتهاك حريتي الشخصية .. وفي النهاية قال لي الضابط الفرنسي رئيس القوة :

— متأسفين يا مدام .. انها اجراءات الامن .

— وما شأني بهذه الاجراءات .. من الذى سلطكم علي .

— لا احد يا سيدتي .. انها مجرد اجراءات الامن .. ونفس الاجراءات تقتضينا ان نطلب منك مغادرة الجزائر .. بمحض

اختيارك ، لو شئت .. والا ففي استطاعتك البقاء .. ولكن على مسؤوليتك ..

وتركني وانصرف ، ووراءه رجاله ..

وقررت البقاء .. عنـاداً ولأظهر براءتي اكثر ، وانني لم اكترث بتصرف البوليس ..

*

ولكن .. وفي نفس الليلة، تغير الحال الى ما كنت لا انتظر ولا اتوقع ..

ذهبت الى ضاحية من ضواحي الجزائر ، احيي حفلـة في مسرحها .. ورفع الستار ، ووجدت امامي جمهوراً كبيراً .. ولكنني دهشت عندما رأيت في الصفوف الاولى عدداً كبيراً من الرجال الملثمين المعممين .. وما كدت اظهر امـامهم حتى وقف واحد من هؤلاء الملثمين يصيـح :

– انهـا ليست فاطمة رشدي كما قلت لكم .. انهـا امرأة نصابة .. جاسوسة من الفرنساويين.. اضربوها .. موتوها ..

وصحت :

– ابدأ .. انا فاطمة رشدي .. تعالوا شوفوا الباسبورت بتاعي ..

وكان جوابهم ان انهالت من ايديهم الحجارة واشياء اخرى يقذفونني بهـا .. وقفز بعضهم الى المسرح يريدون الفتك بي وبينهم من يصيح :

– اقتلوها النصابة .. الجاسوسة .. اذبحوها ..

وانقذني رجال البوليس من بين ايديهم بصعوبة ، وقد اوشكوا على الفتك بي . ورأيت امامي نفس الضابط رئيس القوة التي فتشت غرفتي بالفندق يبتسم ابتسامة ماكرة ويسألني :

– ما رأيك يا مدام ؟

– رأيي ان هذا تدبيرك .. وان هؤلاء الرجال الملثمين المعممين هم من اعوانك سلطتهم علي .

– مهما كان رأيك.. فأظن انه من الاسلم لحياتك ان تستمعي لنصيحتي وتغادري الجزائر في الحال .. ما رايك ؟

واحنيت رأسي موافقة .. فلم يكن امامي الا ان اوافق..



الفصل الحادي عشر

موعد مع السعادة

تركت الجزائر الى « الرباط » عاصمة المغرب .. وعوضني ما صادفته فيها من نجاح فني وحسن استقبال ما لقيته من عناء ومتاعب في الجزائر .. وساعدني على هذا النجاح معرفة اهل الرباط ، حكاماً ومسؤولين وشعباً ، بي منذ رحلتي السابقة .

وجاءني الشخص المكلف باستلام خطاب الزعيم التونسي ، قابلني في محل مغربي لبيع التذكارات والهدايا ، وقال لي انه يعرف كل ما جرى لي، وان كان لا يعرف فحوى الخطاب الذي احرقته والذي كان مفروضاً ان يستلمه مني..وجدتني اقول له:

ــ ولو انني لا أعرف فحوى هذا الخطاب مثلك ؛ الا انني ارمن انه يقول لكم « ارموا الكلاب الفرنسيين المستعمرين في البحر » .

ولم تطل اقامتي بالرباط ورحلت الى « طنجة » .. وكانت

في ذلك الوقت ميناء دولياً حراً ،ومركزا للتهريب وللمؤامرات الدولية ..

وأقمت اول حفلة .. وتقاطر الناس عليهـا .. وانتهزت الفرصة لاقدم لهم مشاهد وطنية حماسيـة ، وصادفت هذه المشاهد هوى في نفوسهم المتطلعة للحرية وللتحرر ، فصفقوا لي حتى دميت اكفهم ، وهتفوا حتى شقت حناجرهم ، واصروا على حملي فوق اكتافهم في مظاهرة شعبية من المسرح الى الفندق الذي نزلت فيه :

وكان هذا التكريم النادر « سبباً لقلق السلطات الاستعمارية الحاكمة ، فاستدعوني في صباح اليوم التالي « مكتب العـامل » أي الحاكم الوطني . . وكان في انتظاري هناك ، ومعه ضابط فرنسي وضابط آخر اسباني برتبة كبيرة ..

وبدأ الضابط الفرنسي الحديث ، قال لي :

– اسمحي لي يا سيدتي اولاً بأن اعبر لك عن اعجابي بفنك لعظيم .

– اشكرك .

– ان اعجابي بك كفنانــة للاسف يشوبه تصرفك المثير للشعب .. وحسب الشعب ان يعجب بك هو الآخر كفنانة .. فنانة فقط ..

– افضل ان يكون اعجابه بي كمربية حرة اولاً ..

وكنت اتكلم بحماس ملتهب ، فتدخل « العامــل » الوطني وقال لي متعجباً :

– لم اك اظنك بهذه القوة .. كنت انظر كــأي امرأة .. ضعيفة .

– اسمح لي ان اجيبك بهذا البيت من الشعر لأبي تمام :
وضعيفة فاذا اصابت فرصة قتلت ، كذلك قدرة الضعفاء .

– سيدتي ، انني اقدر فيك ثقافتك الفنية والادبيــة .. ولكنك تجهلين حقيقة الاوضاع السياسية .

– كل امرىء يا سيدي العامل جاهل .. ولكن موضوعات الجهل تختلف .. وانا ان كنت اجهل حقيقة الاوضاع السياسية، فانني لا اجهل حقيقة الحركة الوطنية .

وسكت « العامل » (الوطني) ! ليتكلم الضابط الاسباني

الكبير بدوره ، قال لي بلهجة ماكرة مستخفة :

ـ ممتازة.. ممتازة جداً.. ليت عند العرب كثيرات مثلك.

ـ كل نساء العرب مثلي .

ـ عنيت « الممثلة »

ـ انا ممثلة على المسرح فقط .. اما الآن مجرد امرأة عربية حرة مجاهدة في الوطن العربي الكبير .

وضغط الضابط الاسباني الكبير على الجرس الى جانبه وهو يهز رأسه .. ودخل ضابط اسباني اخر برتبة صغيرة ، وحيا الرجال الثلاثة بالتحية العسكرية ، وسأله الضابط الكبير مواطنه :

ـ الونزو .. هل كل شيء جاهز .

ـ نعم ياسيدي .. نحن مستعدون للرحيل فوراً .

ـ ان السيدة جاهزة ايضاً .. فقط مروا على الفندق لتأخذ حقائبها ..

وصحت مذعورة :

ـ الى اين ستذهبون بي ؟

واجابني الضابط الفرنسي الكبير وهو يقف امامي :

– معذرة يا سيدتي • اننا ننفذ الاوامر . ولقد صدر الامر بترحيلك الى جبل طارق .

– وماذا افعل في جبل طارق . افضل العودة الى القاهرة ؟

– تستطيعين العودة اليها من جبل طارق .. اما من هنا فمستحيل .

ولكن ..

ولم اكمل اعتراضي .. فقد وقف الرجلان الآخران ، وفتح الضابط الاسباني الصغير الباب .. وكان معناها ان اقف ايضاً ، وان اتبعه ..

***

وشحنوني شحناً الى جبل طارق،وهناك سلموني للمخابرات الانجليزية . وبعد سين وجيم قال لي رئيس هذه المخابرات :

– انت حرة يا سيدتي ، تقيمين هنا او ترحلي حسبما تشائين، فليس عندنا شيء ندينك به .

– ليس عندي مـا اعمله هنا .. سأسافر الى باريس ، بالبر عن طريق اسبانيا .

– كما تشائين . واتمنى لك رحلة طيبة .

وتركت مكتب مـدير المخابرات .. وذهبت الى موقف السيارات الاومنيبوس التي سأستقلهـا في رحلتي .. وركبت المتأهبة للسفر.وجاء بجلسي الى جانب سيدة مغربية متحجبة.. وفوجئت بها تسلمني خطاباً خلسة وتهمس في اذني ان رسولا من من المجـاهدين العرب في باريس سيلقـاني هنـاك ويتسلم مني الخطاب .. وافهمتني ان هذه المهمة امتداد للمهمة السرية التي كلفني بها الزعيم التونسي في القاهرة،وان ذلك الرسول سيكمل كلمة السر . وادركت انها من جيش التحرير ايضاً .. ومضينـا في الرحلة .. ونزلت هي في غرناطة عاصمة الحمراء في اسبانيا ، واكملت انا الرحلة الى باريس ..

وما ان هبطت من السيارة في باريس،حتى تقدم الي شاب .. بائع جرائد « ينادي على جرائده.. وهمس في اذني بكلمة السر، بالحرفين الباقيين من كلمة « كهرمـان » . وسلمته الخطاب .. وانطلق .. ونظرت حولي ابحث عن سيارة اجرة « تاكسي » استقلها وأبحث عن فندق متواضع انزل فيه ريثما أدبر أمري ..

واذا بشاب جميل انيق يتقدم نحوي ..

اتدرون من كان هذا الشاب ؟

كان نفس الضابط الفرنسي رئيس المخابرات الذي عرفته في رحلتي السابقة في الجزائر .. والذي صارحني بحبه وغرامه لي وانا اترك الجزائر .. وصحت فيه وهو يخف لاستقبالي :

– مستحيل .. انت ؟!

– نعم انا .. الم اقل لك اننا قد نلتقي مرة اخرى .. ما الذي جاء بك ؟ .. ولكن فلنصعد اولا الى سيارتي ..

واقتادني الى سيارة فاخرة كانت قريبة منا .. ومضينا نسير في شوارع باريس .. وحكيت له ما جرى لي .. واذا به يعلم به دقيقة دقيقة .. وكان يترقب وصولي .. والا عجب من هذا كله انه كان يعرف بمهمتي الاخيرة ، ورآني وانا اسلم الخطاب للرسول المتنكر في صورة بائع الجرائد . ولكنه غض طرف المخابرات عني لينقذني كما فعل في الجزائر مدفوعاً بحبه وغرامه لي . وسألني :

– ولكن لماذا لم تسافري من جبل طارق الى القاهرة كالمتوقع وجئت الى هنا ؟

ـ لست ادري .. انه تصرف لم تك لي ارادة فيه .

ـ انه حظي يهبط علي من السماء ..

ـ دلني على فندق انزل فيه ؟

ـ لقد اعددت لـــك المكان الذي تنزلين فيه ، انت في ضيافتي .

وذهب بي الى شقة صغيرة اليقة في « الشانزلزيه » « زمالك باريس » اعدها لاقامتي.. عش جميل هنيء..وتركني لاستريح.

وفي الصباح عاد الي ، وفوجئت بأن رأيت شفتيه مورمتين وعلى وجهه آثار كدمات ، وسألته :

ـ اين كنت ؟

ـ في البيت .

ـ ماذا حدث لك ، من اعتدى عليك ؟

ـ زوجتي .

ـ ولماذا ؟

ـ لانني كنت اتكلم، على حين كان يجب ان اصغي !

وضحك ضحكة عالية ليطمئنني على انه ليس بــه سوء ،

ومضى يقول لي :

ـ هكذا النساء . ان تاريخهن هو اسوأ ضروب الاستبداد في التاريخ ، استبداد الضعيف بالقوي ، وهو الاستبداد الوحيد الذي يدوم .

ـ وانا .. لست منهن ؟ !

ـ انت شيء آخر .. انني افهمك .

ـ هذا ما ادركته من زمن فيك .. ان الرجل الحاذق يقول للمرأة انه يفهمها والغبي يحاول ان يثبت ذلك .

وانطلق يحدثني عن حياته .. انه غني جـداً « مليونير » وليس هناك مـا ينقصه في حياته ، الا النساء .. وتقلب النساء اللواتي يحبهن لا يصارعه الا سعير وفاء اللواتي يحببنه .. وفشله دائماً مع النساء مبعثه غيرتهن ، والغيرة في نظره هي الصداقة بين امرأتين ، وليست هناك امرأة لا صديقات لها .. وحياته مع زوجته جحيم متصل .. وبعد ان اتم رواية قصة حياته قال لي:

ـ لقد قررت الفرار بك من باريس .

ـ الى اين ؟

ـ الى اسبانيا .. غداً نسافر الى مدريد، في اجازة طويلة ..

***

وسافرنا الى مدريد في صباح الغد ..

وقضيت مع الشاب الفرنسي المليونير « ضابط المخابرات » سنة من عمري .. كانت سنة طافحة بالسعادة والهناء .. وبعد شهرين فقط من وصولنا الى مدريد قال لي :

– فاطمة اريد ان اقدم لك هدية تذكرينني بها ؟

– لقد غمرتني بهداياك .

– لا .. هذه هدية من نوع آخر .. فيلم سينما عربي تتولين بطولته ..

وكدت اجن من الفرحة .. ولم اصدق انني في حقيقة الواقع وليس في خيال الحلم ، حتى دارت الكاميرا بعد ايام تصور فيلم « الزواج » الذي تولى بطولته امامي الممثل علي رشدي .. فيلم نصف ناطق .. اكملته بعد ذلك في باريس ثم في القاهرة ..

وكان عزم ذلك المليونير الفرنسي الشاب الا يتخلى عني طول حياته .. لو لم تفاجئنا الحرب العالمية الثانية ، ويستدعى لميدان القتال .. فعدنا الى باريس ، ومنها الى مارسيليا ، حيث بذل جهده ونفوذه حتى وجد لي مكاناً على ظهر باخرة بضاعة اعود

فيها الى الاسكندرية ..

وافترقنا .. وهو يأمل في لقاء اخر ، كما امل عند افتراقنا في الجزائر ..

ولكن قدر الا نلتقي مرة اخرى.. فقد قتل في الميدان بعد بضعة اشهر من قيام الحرب ..

الفصل الاخير

حكمة سقراط

عدت الى القاهرة .. وحقيبة يدي خالية الا من ورقة صغيرة .. ورقة بخت كانت من نصيبي في لعبة من العاب التسلية قدمها بحار هندي لنا في سهرة ترفيهية اقامها قبطان المركب خلال الرحلة .. وكانت في هذه الورقة حكمة من حكم سقراط:

« اهدى طريق واقصره » يكفل لك ان تعيش في هذه الدنيا موفور الكرامة والشرف » هو ان يكون ما تبطنه في نفسك كالذي يظهر منك للناس . »

وكنت اخرجها من حقيبة يدي من يوم لآخر .. واقرأها ، وعقلي الباطن يقول لي « هذا دستور حياتك» فلا تتخلي عنه .»

ولم اك افكر ماذا ينتظرني ، وماذا يصيبني .. وانا باقية على شعاري : لا بأس .. ولا بأس .

وكانت مفاجأة سارة في انتظاري بالقاهرة .

وكان « كمال سليم » المخرج السينمائي يترقب عودتي ليسند الي بطولة فيلم « العزيمة » وهو مصر على انه لن يقدر لهـــذا الفيلم النجاح الذي ينتظره له الا اذا توليت انا بطولته ..

والتقيت بكمال سليم لاول مرة .. جلس امامي يلخص لي قصة الفيلم .. وانتهى من حديثه ، وسألني :

– ما رأيك ؟

– مدهش .

– اعجبتك قصة الفيلم ؟

– نعم . واعجبتني انت ايضاً .. اعجبتني ثقافتك الفنية .. واعجبني ايمانك بي .. وكان هذا الاعجاب نفسه الذي جذبني الى عزيز عيد .

وافترقنا على موعد نلتقي فيه انا وهو وعزيز عيد .. والتقينا في هذا الموعد ، وعرفت الفنانين الكبيرين احدهما بالآخر ، ومن الحديث تبادلا الاعجاب . وعرض كمال على عزيز ان يشترك في الفيلم بأداء دور من ادواره ، فقبل عزيز بلا تردد . وهو يقول :

– علشان عيون بطاطة .. بطاطة المسلة (يقصدني كما كان يدللني بهذه التسمية فيما مضى) .. اعمل اللي انت عاوزه .

وبدأنا العمل في الفيلم .. اقترب اكثر واكثر من كمال سليم ، واتوسم فيه الطيبة والنبل .. الى ان صارحني يومـا بحبه لي ورغبته في الزواج مني .. فجاوبته بأنني اكن له نفس الشعور شعور الحب.. اما طلب الزواج فليمهلني في الرد عليه ..وكان عنيداً صلباً فلم يتركنى الا بعد ان وافقت .. وصحبتــه الى المأذون ، وتزوجنـا فعلاً . ولم يتركني الا لاحزم امتعتي ريثما يلحق بي ويأخذني الى بيته ..

وعشت مع كمال سليم اياماً سعيدة هنيئة .. ونحن ماضون في العمل في الفيلم ، حتى جاء اليوم الذي فوجئت فيه بعزيز عيد يدخل الاستديو ليمثل الدور الذي اتفق كمال معه على ادائه .. اتدرون اي دور اختاره عبقري السينما لعبقري المسرح ، دور « عريجي حنطور » .. دور ثانوي ..

وليت الامر اقتصر على اختيار هذا الدور التافه لعزيز .. بل ما كاد يبدأ في ادائه ، حتى راح كمال سليم يلاحقه بتعليماته في عنف وقسوة وينتقده قائلا :

– تمثيل ايه ده وزفت ايه .. امال كنت مخرج ازاي .. يا رجل الحرك ومثل زي البني آدمين .. انت حتى موش عارف تمثل كومبارس ..

واجاب عزيز بدموعه .. وهو مطرق الى الارض حتى لا تلتقي عيناه بأعين تلاميذه وتلميذاته الذين يمثلون معنا في الفيلم.. ولم يترفق به كمال بل زاده قائلا :

انت عامل نفسك كبير يا استاذ عزيز .. السينما مـا فيهاش كبير .. انا لما كنت في فرقة رمسيس طردت محمـد كريم من المسرح لانه ما كانش عارف يقف كومبارس ..

واعترضت .. وكان اعتراضي هادئا جداً .. انتظرت حتى انتهى التصوير في الاستديو، وبقي كمال هناك بعض الوقت ليتم عمله، ثم عاد الى البيت ليجده خاوياً ، وليجـدني قـد جمعت امتعتي وعدت الى حيث كنت اقيم . وعبثاً حاول الصلح ، واعـادني الى البيت ، ورغم اعتذاره الشديد لعزيز اصررت على الطلاق منه والافتراق عنه .. وكان ايماني بعزيز عيد بعد ايماني بالله .

وتم فيلم العزيـة .. وعرض .. وكان نجاحـه الساحق المعروف .. ثم دعاني كمال سليم لبطولة فيلم آخر «الى الابد» . وقبلت ، بشرط . الا يمثل فيه عزيز ..

وبقينا انا وكمال سليم صديقين.. صديقين فقط ، حتى مماته..

ورغم نجـاحي الكبير في السينما ، عـاودني الحاح نداء

المسرح .. فألفت فرقة جديدة .. وكانت الفرقة القومية قد ضمت ابطال مسرحي القدامى وابطال مسرح رمسيس، فاستعنت بمواهب جديدة : ماري منيب وامينة نور الدين وزوزو حمدي الحكيم وفردوس محمد وكوكا ومحمود المليجي ويحي شاهين وعثمان اباظه وحسين صدقي .. وقدمت عدة مسرحيات كانت انجحها « سالومي » بين مسرح برنتانيا الشتوي ومسرح الليدو الصيفي بالجيزة ..

ولكن كانت السينما قد طغت على المسرح طغياناً تاماً .. فخسرت من جديد في المسرح . الا ان كسبي من السينما عوض على هذه الخسارة . فقد توالت على العروض فيها ، فمثلت في افلام « ثمن السعادة » و « الطريق المستقيم » و « بنات الريف » و « الغجرية » .. و « الطائشة » وغيرها ..

ورغم نجاحي في هذه الافلام كلها .. كان الداء القديم المزمن « المسرح يعاودني من وقت لآخر فأعالجه بتأليف فرقة جديد انفق عليها كل ما اكسبه من السينما او تدركني القناعة ويلحقني الحرص في احيان تارة فاكتفى بعلاجه بالقاء منولوجات تصويرية فردية بين الفصول في صالة شقيقتي رتيبة وانصاف .. وكنت سعيدة راضية بهذه المنولوجات اشبع بها حنيني للمسرح

رغم انني اذا ما انتهيت من القاء منولوجاتي واسدل علي الستار، يفتح من جديد على راقصة تهز بطنها وتثير الجمهور اثارة تمحو بالمرة كل الاثر الدرامي الذي تركته انا .

ثم لمعت لمعان العزيمة مرة اخرى في فيلم « دعوني اعيش » الذي مثلته مع ماجدة .. اتدروا كيف كان تقدير ماجدة لنجاحي هذا فيما بعد .. التقيت بها بعدها مرة في استراحة « الرست هاوس » في طريق الاسكندرية الصحراوي ، وأنا عائدة من الاسكندرية بالاومنيبوس « فدعتني لتكملة السفر في سيارتها » فقبلت شاكرة ، ولما فتحت الباب لأجلس الى جانبها قالت لي في غطرسة وكبرياء :

— اطلعي اقعدي جنب السواق ..

وكان جوابي « علقة » كلامية وجسمانية ، لا اظن ماجدة تنساها ابداً ، وعدت الى الاومنيبوس اكمل به رحلتي .

***

وهجرت المسرح سنوات ، الى ان انشىء المسرح العسكري ودعيت لبطولة مسرحياته ، واستعدت بالعمل فيه ايماني بالمسرح بعد ان كفرت به تلك السنوات .. استعدته في الليلة التي وقفت

فيها انشد لشوقي نظمه الخالد :

يا جيش النيل بالسلامة . يا جيش النيل بالسلامة .
ظفرت بالنصر كل حين وفزت بالعز والكرامة .
في يوم سلم وفي قتال وفي رحيل وفي اقامة .
فما شهدت القتال حتى رفعت للضفتين هامة .
ابليتم قادة وجنداً بورك في الجند والزعامة .
شيد الله مجد مصر والجيش الجيش لمجدها الدعامة .

وصفق لي الضباط والجنود ، وعلى رأسهم جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ..

وانتهى عملي من المسرح العسكري .. ولم استطع مقاومة الالحاح من جديد ، فألفت فرقة سافرت بها الى السودان ثلاثة اشهر ، ثم عدت الى القاهرة فعملت بها فترة على مسرح هوسايير ، ثم سافرت الى بور سعيد فقدمت موسماً على مسرح البلدية الصيفي ..

واخيراً كان اشتراكي مع فرقة المسرح الحر في مسرحية نجيب محفوظ « بين القصرين » التي حطمت الرقم القياسي في تاريخ المسرح العربي الحديث ، اذ مثلت حوالي ثلاثة اشهر بلا

انقطاع .. والتي جعلت الناس يذكرونني بدوري الخالد فيها « زبيدة العالمة » ذكرهم لي في ادواري الخالدة القديمة « ليلى العامرية » و « كليوباترة » و « سميراميس » و « الكاميليا » ..

***

ولكن مذكراتي لم تنته بعد .. فما زال في حياتي صفحات ، وما زالت بين اضلعي انفاس تتردد .. واخر هـــذه الانفاس سألفظها على المسرح الذي نذرت عمري له ..

وسأبقى انا كما كنت دائماً .. ودستور حياتي حكمة سقراط التي تضمها ورقة البخت التي كانت من نصيبي في لعبة التسلية التي قدمها البحار الهندي على ظهر المركب التي عدت بها من مارسيليا الى الاسكندرية بعد اعلان الحرب .. الورقة التي لا تغادر حقيبة يدي والمكتوب فيها تلك الحكمة لسقراط :

« اهدى طريق واقصره ، يكفل لك ان تعيش في هذه الدنيا موفور الكرامة والشرف ، هو ان يكون مـا تبطنه في نفسك كالذي يظهر منك للناس » .



مذكرات

محمد عبد الوهاب	٢٠٠ ق. ل
يوسف وهبي	١٥٠ ق. ل
البيجوم ـ حياتي مع آغاخان	١٠٠ ق. ل
فاطمة رشدي	١٠٠ ق. ل

يصدر تباعاً

محمود تيمور

بديع خاطر

0390711

الثمن ١٠٠ ق. ل